الباب الأول

الروح فى الحياة الدنيا

وفيه فصول أربعة:

الفصل الأول: حقيقة الروح

الفصل الثانى: نشأة الروح.

الفصل الثالث: الروح مع البدن وفيه مبحثان:

(أ) المعرفة الإشراقية.

(ب) الرؤى والأحلام.

الفصل الرابع: الروح عقب الموت وفيه مبحثان:

(أ) عالم البرزخ.

(ب) تحضير الأرواح.

الفصل الأول

حقيقة الروح

هل للروح وجود حقيقي؟ وما ماهية هذا الوجود؟

سؤالان أو سؤال ولازمه شغل الفكر الفلسفى طوال عصوره وتباينت فيه الآراء وتناقضت معه الأفكار..

ولبيان ذلك نسلك مرحلتين:

(أ) مرحلة النفى وفيها نعرض آراء أولئك الذين يزعمون نفى وجود الروح أو يفسرونها تفسيرا يبطل وجودها المتفرد.

(ب) مرحلة الإثبات وفيها نعرض أدلة المثبتين للوجود الروحى المتميز.

وبعد ذلك نستعرض تصورات الوجود الروحى لدى الفلاسفة والمتكلمين مع الترجيح لما نراه أقرب إلى الحق وأدنى لشواهد الشرع.

مرحلة النفى:

أنكر بعض الفلاسفة الروح ولم يثبتوا إلا الجسد وعناصره التى يتركب منها وما ينشأ عن الصورة التركيبية من خواص ليست لأحد العناصر منفردا..

وحكى الإمام الرازى[1] عن الأطباء وأبى الحسين البصرى من المعتزلة أن العناصر الأربعة إذا امتزجت وانكسرت سورة كل واحد بسورة الآخر حصلت كيفية معتدلة هى المزاج، ومراتب هذا المزاج غير متناهية فبعضها هى الإنسانية وبعضها هى الفرسية، فالإنسانية عبارة عن أجسام موصوفة متولدة عن امتزاجات أجزاء العناصر بمقدار مخصوص.

وكان الأصم — كما نقل الأشعرى[2] — لا يثبت الحياة والروح شيئا غير الجسد ويقول: ليس أعقل إلا الجسد الطويل العريض العميق الذى أراه وأشاهده، وكان يقول: النفس هى البدن

---

(١) التفسير الكبير جـ ٢١ — ٤٥.

(٢) مقالات الإسلاميين جـ ٣ ص ٢٧.

بعينه لا غير وإنما جرى هذا الذكر على جهة البيان، والتأكيد لحقيقة الشيء لا على أنها معنى مغاير للبدن.

ومن عجب أن يذهب بعضهم إلى أن الروح هى الدم الصافى تقوى الحياة باعتداله وتفنى بفنائه وحجتهم فى ذلك أن الإنسان إذا مات لم يفقد من جسمه إلا دمه، ومنهم من قال إن الروح هى النسيم الداخل والخارج من الهواء[1].

ويرى الفلاسفة الماديون أن الفكر — وهو أخص وظائف النفس — ليس إلا وظيفة عضوية للمخ لإنتاج الأفكار كما أن وظيفة المعدة هضم الطعام ووظيفة الكبد إفراز الصفراء، وكيفية إحداث المخ للأفكار — كما يقول الفرنسى غابانيس[2] (١٧٥٧ — ١٨٠٨م) — هو أن التأثيرات تتوارد إلى المخ فتدخله فى العمل كما تنزل الأغذية إلى المعدة فتهيجها إلى زيادة إفراز العصارة المعدية.

لمزيد من الإيضاح فإن هوبز الفيلسوف الإنجليزى (١٥٨٨ — ١٦٧٩م) يفسر الوجود كله بالمادة حتى عمليات الذهن العقلية، فالمعرفة كلها مصدرها الإحساس الذى هو عملية مخية تبدأ بمؤثر خارجى يضغط على الجسم الإنسانى، أما الانفعالات فهى كلها حركات جسمية، والتخيل أساسه إحساس متقادم، والذاكرة مجموعة إحساسات قديمة ذابلة وأما تداعى المعانى فهو يرجع إلى حركات فى المخ[3].

وترى الفلسفة الماركسية أن الفكر لا يصدر عن جوهر روحى فى الإنسان وإنما هو انعكاس للمادة ونتاج لها بسبب حركتها المستمرة، وعندهم ما يسمى بالمادية الجدلية التاريخية بمعنى أن المنطق مادة وتاريخ فلا وجود إلا للمادة، ومظاهر الوجود نتيجة تطور متصل للقوى المادية فى حركتها المستمرة التى تتخذ أشكالا متعددة فزيائية وكيميائية (كحركات ذرات الماء وجزئياتها) وبيولوجية (حركات الأجسام البروتينية) واجتماعية (الصراع بين طبقات المجتمع الواحد)[4].

وسميت هذه المادية الجدلية بالتاريخية لأن الماركسية تنقم على الفلاسفة نظرتهم التأملية الذاتية التى تحاول تفسير العالم، وتذهب الماركسية إلى الاهتمام بدراسة تاريخ الإنسان لأن

---

(١) المواقف لعضد الدين الإيجى مع شرح الشريف الجرجانى جـ ٧ ص ٢٥٠.

(٢) دائرة معارف القرن العشرين — محمد فريد وجدى جـ ٤ ص ٣٣٠.

(٣) الفلسفة ومباحثها — د. أبو ريان ص ١٧٥.

(٤) مقدمة فى الفلسفة العامة — د. يحيى هويدى ص ١٧٨.

الوجود الخارجي هو الذى ينشئ الوجدان الإنسانى من غير عكس، وأن الجدل ليس مجرد قرع حجة لحجة وإنما هو انتقال من حال وجودية إلى حال وجودية أخرى، وبصيرورة المادة وتغيرها يتغير الناس.

ويزعمون أنه فى ظل المجتمع البدائى الأول كانت الحرفة السائدة هى الجمع والالتقاط فلم يكن يبذل الإنسان حينئذ مجهودا فى استغلال الطبيعة واستثمار مواردها وهذه الصورة المادية أثرت فى حياة الناس ونظمهم فكان المجتمع شيوعيا تنتفى فيه الملكية الخاصة والأسرة — وحين وجدت طاحونة اليد كان العصر عصر استرقاق لأن الملاك لم يكن فى مقدورهم إدارة الرحى.. وهكذا يفسرون كل مظاهر الحياة السياسية والأخلاقية عن طريق تطور أساليب إنتاج الثروة المادية وتأثيرها.

وهناك اتجاه آخر ينفى الروح ويقدم تفسيرا للفكر والأخلاق يعتمد على نظرية التطور لدارون (١٨٠٩ — ١٨٨٢م) التى تقوم على قانون الانتخاب الطبيعى القائل بأن الحياة نشأت بمحض الاتفاق والمصادفة البحتة، فالخلية الحية أو الأميبا صورة متطورة من المادة البحتة غير العضوية ثم تطورت تلك الخلية البسيطة إلى أخرى معقدة فظهرت المملكة النباتية والحيوانية ثم ظهرت الزواحف بأنواعها وما لبثت أن انقرضت وقام على أنقاضها الثدييات ومن بينها الإنسان الذى تطور عن القردة العليا والفرق بينه وبين الحيوان فرق بالكم والدرجة فقط، والعاطفة الأخلاقية لدى الإنسان ما هى إلا صفات ووظائف يتطلبها الانتخاب الطبيعى، والحياة النفسية عند الإنسان هى كما عند الحيوان مرتبطة بوظائف الأعضاء.

وقوانين الانتخاب الطبيعى ثلاثة هى:

١ — قانون الملاءمة بين الحى والبيئة الخارجية.

٢ — قانون استعمال الأعضاء أو عدم استعمالها بحيث تنمو الأعضاء أو تضمر أو تظهر أعضاء جديدة حسب الحاجة.

٣ — قانون الوراثة وهو يقضى بأن الاختلافات المكتسبة تنتقل إلى الذرية.

وبعد — هذه باختصار اتجاهات النافين لوجود الروح الإنسانى.

نقد ونقض :

أولاً: أمر بدهي: كثير من الفلاسفة يعد وجود النفس أمرًا بدهيا لا يحتاج إلى برهان، حتى إن «ديكارت» أبا الفلسفة الحديثة (١٥٩٦ — ١٦٥٠م) وهو فى شكه المطلق أثبت أن النفس حقيقة لا مرية فيها.. وها هو ذا يقول[1]:

أنا أستطيع الشك فى كل شيء ما خلا شكى، ولما كان الشك تفكيرا فأنا أفكر، ولما كان التفكير وجودا فأنا موجود (أنا أفكر إذن أنا موجود) تلك حقيقة مؤكدة واضحة متميزة خرجت من ذات الفكر لها ميزة نادرة هى أنى أدرك فيها الوجود والفكر متحدين اتحادا لا ينفصم، ومهما يفعل الروح الخبيث (الشيطان) فليس يستطيع أن يخدعنى فيها لأنه لا يستطيع أن يخدعنى إلا أن يدعنى أفكر.. وإذن فأنا أتخذ هذه الحقيقة مبدأ أول للفلسفة، فالفكر مبدأ لأنه وجود معلوم قبل كل وجود، وعلمه أوضح من علم كل وجود، وهو معلوم بداهة.

ومهما نعلم فنحن بفكرنا أعلم فمثلا لو اعتقدت أن هناك أرضا بسبب أنى ألمسها وأبصرها فيجب أن أعتقد من باب أولى أن فكرى موجود، إذ قد أفكر أنى ألمس الأرض دون أن يكون هناك أرض، ولكن ليس من الممكن ألا أكون موجودا فى الوقت الذى أفكر فيه، ثم أنا أتخذ هذه الحقيقة معيارا لكل حقيقة.

وتعريف الفكر.. بالإجمال.. أنه كل ما يحدث فينا بحيث ندركه حالا بأنفسنا، فحين أقول إنى شيء مفكر أقصد أنى شيء يشك ويثبت وينفى ويعلم قليلا من الأشياء ويجهل الكثير، ويحب ويبغض ويريد ويأبى، ويتخيل ويحس.. والفكر صادر عن النفس — أو هو النفس أو الروح — خالص ثابت عندى مهما أشك فى وجود جسمى وسائر الأجسام».

ثانيا: أعراض الجسد: إن أى محاولة لتفسير الروح بعوارض الجسد أو لوازمه هى محاولة فاشلة، ومجرد ادعاء باطل، ولا يعقل أن يكون الروح نسيما من الهواء أو عرضا للبدن، وإلا لما توفى الإنسان لأن الهواء يحيط به، والعرض لا يفارق الجوهر الحامل له.. كما يترتب على ذلك أن يتبدل الإنسان فى كل ساعة آلافًا مؤلفة من الأنفس والأرواح لأن الهواء الداخل فى التنفس غير الهواء الخارج ولأن العرض لا يبقى عندهم زمانين فهو متجدد دائما..

هذا وقد أصبح من المشاهد عمليات نقل الدم وتبادله بين الناس فهل تتبادل الأرواح حينئذ إذا كان الروح هو الدم؟!.

وقد استطاع الطب حديثًا أن يغير دم الإنسان بأكمله فى بعض حالات المرض فما ظن أولئك الذين يفترون الكذب؟!.

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة – يوسف كرم ص ٦٦.

ثالثًا: المخ والإدراك: إن ثبوت كون المخ هو سبب الإدراك لا يستدل منه على أن المخ هو المدرك فى الحقيقة وإنما يقال عنه حينئذ إنه آلة للإدراك كما أن العين آلة للإبصار، والأذن آلة للسمع، وليس المبصر هو العين ولا السامع هو الأذن وإلا لثبت ذلك طردا وعكسا، ولكننا نلاحظ أن العين قد تكون سليمة من كل عاهة ومفتوحة ولا يبصر الإنسان من أمامه لفرط فزع أو شدة ألم أحاط به، وقد يكون فى تلك الحال فينادى عليه أدنى الناس منه مكانا ولا يسمع له نداء.

ثم إن النائم يبصر ويسمع ويتكلم فى رؤياه وقد بطل عمل بصره الجسدى وعمل أذنيه الحسى، وكلام لسانه المادى: بل بدأ[1] العلماء فى الفترة الأخيرة يتعرفون على أسرار جديدة فيما يختص بعملية الإبصار فليس من الضرورى أن تكون لنا عيون تقليدية فقد وجد العلماء أن بعض الكائنات البدائية جدا والتى تتكون من خلية واحدة لا غير — قادرة على الرؤية لقد اكتشفوا تفاعلات معينة فى جدار جسمها، ووجدوا أن هذه التفاعلات تتم فقط، عندما يصدر عنها ما يشير إلى أنها رأت شيئا.. رأت طعاما فسعت إليه أو رأت مصدر خطر فابتعدت عنه..

من ذلك نستنتج أن العقل المبصر السامع المتكلم غير الجسد، وهو المسمى نفسا أو روحا.

وليس لقائل أن يدعى أن عدم الرؤية والسماع عند فرط الفزع أو الألم حدث من انصراف الإنسان عن التمييز لاشتغال المخ بما ألم به.. فهذا إيراد واهى الدعائم — كما يقول العلامة محمد فريد وجدى[2] — فإن الذى شأنه أن ينصرف من شىء إلى شىء فيقف على أمر دون آخر لا يعقل أن يكون ماديا محضا فقد عهدنا الآلات المادية لا تنصرف إلى شىء دون شىء إلا إذا حال بينهما حائل مادى فالمرآة لا يعقل أن تنصرف إلى رسم شخص دون شخص ما دام ليس بين أحدهما وبينها حجاب كثيف.. وإذا كان المخ — كما يزعمون — مادة محضة مثل آلة الساعة فمن الجنون أن نعزو لها الانصراف إلى ألم أو فزع، إذ التألم والفزع أمور معنوية محضة وربما كانت وهمية.

فإن كان يخجلك أن تقول: فزع القطار عن القضيب أو تألمت الساعة فضللتنى عن الوقت — كان أولى لك أن تخجل من ادعاء تألم المخ أو فزعه وهو فى نظرك مادة محضة!!!.

رابعًا: المادية الساذجة: وأما مادية هوبز فما هى إلا مادية ديمقريطس وأبيقور بكل سذاجتها، ونسى هؤلاء جميعا أو تناسوا أن استتباع الظاهرة النفسية لمظهر انفعالى طبيعى فى البدن لا يجعلها مادية، فالروح تتعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف.

---

(١) جريدة الجمهورية (٤ / ١ / ١٩٧٣).

(٢) دائرة معارف القرن العشرين جـ ٤ ص ٣٣٢.

ثم إن محاولة قصر المعرفة على الحس تضييق لمجال الفكر، ووأد لتطلعاته، وماذا هم قائلون، وقد تحولت المادة إلى طاقة غير محسوسة؟ وكيف يفسرون خداع الحواس؟ أليس السراب مثلا حين رؤيته ينقدح فى نفسنا أنه حقيقة ولا مصحح لهذا الوهم إلا حكم العقل المجرد البعيد عن الحس؟!.

موقف لأبى حامد:

وأسوق هنا موقف الإمام الغزالى عندما أراد الوصول إلى الحقيقة فيقول: [1]

من أين الثقة بالحواس؟

وأقواها حاسة البصر وهى تنظر إلى الظل فتراه واقفًا غير متحرك وتحكم بنفى الحركة ثم بالتجربة والمشاهدة – بعد ساعة – تعرف أنه متحرك وأنه لم يتحرك دفعة بغتة بل على التدريج ذرة ذرة حتى لم تكن له حالة وقوف.

وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيرًا فى مقدار دينار ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض فى المقدار.

هذا وأمثاله من المحسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيبًا لا سبيل إلى مدافعته.

فقلت قد بطلت الثقة بالمحسات أيضًا فلعله لا ثقة إلا بالعقليات التى هى من الأوليات كقولنا: العشرة أكبر من الثلاثة، والنفى والإثبات لا يجتمعان فى الشىء الواحد، والشىء الواحد لا يكون حادثًا قديمًا، موجودًا معدومًا، واجبًا محالاً.

فقالت الحواس: وبم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسات وقد كنت واثقًا بى فجاء حاكم العقل فكذبنى ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقى فلعل وراء إدراك العقل حاكمًا آخر إذا تجلى كذب العقل فى حكمه كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكمه..

وعدم تجلى ذلك الإدراك لا يدل على استحالته.

فتوقفت النفس فى جواب ذلك قليلاً، وأيدت إشكالها بالمنام وقالت أما تراك تعتقد فى المنام أمورًا وتتخيل أحوالاً، وتعتقد لها ثباتًا واستقرارًا ولا تشك فى تلك الحالة فيها ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل؟!

فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده فى يقظتك بحس أو عقل هو حق بالإضافة إلى حالتك التى أنت فيها لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى منامك

---

(١) المنقذ من الضلال – تحقيق د. عبد الحليم محمود ص ٧٧.

وتكون يقظتك نومًا بالإضافة إليها فإذا وردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها؟!

ولعل تلك الحالة ما تدعيه الصوفية أنها حالتهم إذ يزعمون أنهم يشاهدون فى أحوالهم التى لهم إذ غاصوا فى أنفسهم وغابوا عن حواسهم — أحوالاً لا توافق هذه المعقولات.

ولعل تلك الحالة هى الموت إذ قال رسول الله ﷺ : «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»[1].

فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة فإذا مات ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن ويقال له عند ذلك «فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» ا هـ.

وهذا تحليل عميق لأغوار النفس الإنسانية وكل ما يعنينا منه فى هذا المقام أن وراء الحس مجالاً أرحب قد نسميه عقلا أو نفسًا أو روحًا.

خامسًا: حضارة الدين: إن الفلسفة الماركسية جعلت الإنسان كالآلة الصماء؛ وادعاؤها أن الفكر انعكاس فقط للمادة وهم باطل فإن الفكر قبل أن يكون انعكاسًا فهو إسقاط يقوم فيه الإنسان بفرض الفروض، وهو بعد ذلك تقييم ومعيار يحكم على الشىء..

وتاريخ الإنسانية لا يفسر تفسيرًا ماديًّا فحسب بل إنه قبل ذلك وبعده – عقل وروح فإذا تحسسنا جذور الحضارات الأولى التى شيدها الإنسان نجد أنها قامت على أساس من الدين والتدين، وما الأهرام بكل شموخها، وما فن التحنيط بكل دقته، وما تلك الفنون الرائعة فى النحت والنقش والتصوير.. ما كل ذلك إلا ثمرة إيمان وفكر وروح.. وكذلك الحال فى الحضارات الفارسية والصينية والإغريقية فقد تفجرت عن عقيدة وتوثقت بإيمان.

وإذا كان إيمان هؤلاء لم يصل إلى حقيقته أو كماله فإن المسلمين يوم عرفوا طريقهم إلى كتاب الله واستلهموه رشدهم وألقوا إليه السلم – قادهم إلى أمة هى من التاريخ غرته ومن الزمان ربيعه، حيث جعل من حفاة الأعراب وسدنة الأصنام علماء الإنسانية وحكماءها ودعاة التوحيد والوحدة فيها، وعاشت حضارتهم فى دنيا الناس قرونًا زاهرة أنتجت للإنسانية كل ما تصبوا إليه فى وقتها، ومهدت للحضارة الحديثة التى كان عمدها الرئيسية مراكز حضارة الإسلام فى الأندلس وصقلية والقاهرة ودمشق وبغداد.. ولا يمكن إدراك سر ذلك وفهم أسبابه إلا إذا رددناه إلى قوة الإيمان وصدق العقيدة فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

سادسًا: تهافت نظرية التطور: إن القول بالتطور مجرد فرض يعوزه التحقيق العلمى وكل ما ادعوه من أدلة هى:

---

(١) هذا الحديث ذكره على قارى فى الموضوعات.

١ - الدليل التشريحى:

قالوا إن أجزاء الهيكل العظمى للإنسان تتشابه بمثيلاتها فى الحيوانات الأخرى، فذراع الإنسان والرجل الأمامية من ذوات الأربع تتشابه عظامها فى التركيب وإن اختلفت فى الوظيفة وكذلك الحال بالنسبة للأجهزة الهضمية والتناسلية.. إلخ.

وهذا الدليل لا ينهض برهانًا على دعواهم، ومتى كان التشابه دليلاً على أن أحدهما أصل للآخر وذلك الآخر منقلب عنه؟!

لقد كان الأولى أن يقال إن تشابه الخلق دليل على وحدة الخالق، وصدق الله إذ يقول:

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾[1].

٢ - دليل التراكيب الأثرية:

ويعنون به أن بعض الأعضاء زائدة فى الإنسان ولا فائدة منها مثل الشعر الموجود فى جسم الإنسان البالغ، وكذا الزائدة الدودية، والقدرة على تحريك الأذن عند بعض الناس. فظهور هذه الفضلات ما هى إلا آثار لصفات فقدها الإنسان منذ أمد بعيد نتيجة التكيف مع الوضع الجديد.

وبدهى أن العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة؛ والحكم على هذه الأعضاء بالزيادة حمق وبلاهة فهل أحطنا علمًا بكل شىء وعرفنا كل صغيرة وكبيرة فى الإنسان أعضائه ومشاعره؟! كلا.. وفوق كل ذى علم عليم.

٣ - دليل الصور الجنينية:

وقد بنى على أساس أن تحولات الجنين فى الفرد الواحد صورة مصغرة لتحولات النوع وقالوا أيضًا إن الأطوار الأولى للجنين تتشابه فى كل من الإنسان والحيوان، وحاول أرنست هيكل (١٨٣٤ - ١٩١٩) عرض صور لجنين القرد وجنين الإنسان كى يثبت تطابقهما[2].

وقد ثبت أن هيكل كان مزورًا فى الصور التى عرضها وافتضح أمره وظهر بعده عن المنهج العلمى. وقد زعم أن الحياة ترجع إلى أصل واحد هو «المونيرا» التى تركبت اتفاقًا من الآزوت والهيدروجين والأكسجين والكربون ثم تطورت على التوالى حتى تكونت جميع الكائنات الحية وبينها وبين الإنسان - فى زعمه - اثنتان وعشرون حلقة، وقد رتبها مستعينًا ببقايا الأحياء فى

---

(١) سورة الأنعام آية: ٣٨.

(٢) د راجع كتاب الفلسفة ومباحثها - د. أبو ريان ص ١٧٨ وتاريخ الفلسفة الحديثة يوسف كرم ص ٤٠٠ وأسس الفلسفة د. توفيق الطويل ص ١٢٠.

طبقات الأرض ولما لم يجد من الكائنات ما يملأ هذه السلسلة الوهمية بدأ يتخيل كائنات حية لم توجد ليسد بها الفراغ.

فهل تبنى حقائق العلم على التخيل؟!

وهل من الأمانة العلمية الافتراء على التاريخ؟!

٤ - دليل الحفريات:

فقد اكتشفوا هياكل وجماجم بشرية قديمة تثبت فى نظرهم التطور الذى توالى على الإنسان.

وكل ما اكتشفوه من حفريات للإنسان إنما يؤكد الاختلاف الكمى للإنسان فى مختلف العصور فكونه هنا ماردًا وهناك قزمًا، أو جمجمة هذا الإنسان أكبر حجمًا من ذاك.. ليس فيه شائبة تطور الإنسان عن نوع آخر وإنما هو تطور داخل النوع الواحد تبعًا للبيئة وظروف الطقس والمناخ.

وقوانين الانتخاب الطبيعى الثلاثة منقوضة:

فبالنسبة لقانون الملاءمة نجد أن القردة العليا تعايش الإنسان الأول فى بيئة واحدة وتخضع معه لظروف واحدة ولا تتطور فتصبح من بنى البشر كما أن أشجار الغابات منذ أزمان سحيقة تتجاور وتسقى بماء واحد ومع ذلك فهى أنواع شتى وليست نوعًا واحدًا. وبالنسبة لقانون نمو الأعضاء وضمورها حسب الحاجة نجد أن من البشر من يولد بأصابع زائدة عما اعتاده الناس أو بوضع خلقى شاذ غير مألوف.. فأى قانون يحكم هؤلاء الشواذ من البشر؟!

وبالنسبة لقانون الوراثة نجد أن اليهود والعرب منذ آلاف السنين يقومون بعملية الختان لأبنائهم ومع ذلك فلم يولد إنسان مختون رغم هذه الأحقاب المتطاولة.

بعد هذا نقول:

إن ادعاء المصادفة فى نشأة الحياة قول يبرأ منه العلم وتنفيه حقائق الكون فإن النظر فى سمائه وأرضه، حيوانه وطيره، بحره وبره، ثمره وزرعه كفيل بدحض هذا الافتراء..

وإذا كان الإنسان عناصر مادية فحسب وليس فيه روح من أمر الله فكيف فشلوا فى تحضير الخلية الحية رغم معرفتهم بتكوينها العنصرى الكيميائى؟

ونردد مع الشاعر الربيع الغزالى[1]:

---

(١) مجلة الوعى الإسلامى شوال سنة ١٣٩٠.

سـر الحياة.. من الذى أحيا به ... صـور الحيـاة تخالفت ألـوانًا
هل يستطيع العلم خلق قُـلامة ... أو أن يسـوى فى اليدين بنانـا
والنفس يا للنفس ما أسـرارها ... والعقل مَنْ أعلى به الإنسـانا
والجسم صَوّره سـلالة طينـةٍ ... تجرى الوراثة فيه أعجب شـانا
هاتـوا من الجـزار بعض عظامـه ... أو بعض لحـم واصنعوا إنسـانا
ثم اصنعـوا عقـلاً له ودعـوه يمـ ... ـشى بينكم هل يستوى حيوانـا
يا كافـرا بالله فانظر هـل ترى ... من أنت؟ ماذا فى إهـابك كانا[1]
جئتَ الوجـود، أجئتـه بإرادة ... قد شئتها وحللت فيه مكانـا
وحييت هل تحيا بأمرك آنـة ... وشببت هل تنمو بأمرك آنـا
وإذا قَضَيت فهل بأمرك تنتـهى ... منك الحياة وتلبس الأكفانـا
من ذا أراد لك الوجود، أأنت أم ... أبواك قد شاءاك ساعة كانـا
قد ألقياك مجاجـة ممجوجـة ... فإذا المجاجـة سويت إنسانـا
من ذا أراد؟ أأنت أم رحم بهـا ... قد كنت شيئًا يشبه الديدانـا
يا دودة فى القاع من قد شاءها ... بشـرا سويًّا يمـلأ الأكوانـا
الله رب الخلـق جـل جـلاله ... خلق الحياة وصور الأبدانـا

***

وإذا تنزلنا عن هذا التحدى وهو خلقهم إنسانا من طين، وفرضنا جدلاً أنهم استطاعوا تخليق إنسان فى أنبوبة اختبار بالجمع بين الحيوان المنوى والبويضة[2] - رغم محاولاتهم اليائسة - فإنهم لم يصنعوا شيئًا أكثر من تهيئة جو لهذا الكائن الحى شبيه بجو الرحم والله سبحانه هو الذى يتولى تخليقه وتطويره فى مراحل خلقه، ويمسك الروح فيه إن شاء.. ويبقى التحدى القرآنى قائمًا:

---

(١) الإهاب: الجلد ما لم يدبغ.

(٢) قد يتساءل البعض عن نسب هذا الإنسان الجديد ونقول إنه ينسب إلى من أخذ منه الحيوان المنوى ومن أخذت منها البويضة إن كان بينهما عقد شرعى وإلا فهو من اللقطاء له حكمهم وتتكفل به الدولة أو أحد رعاياها دون حق النسب.

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[1].

***

وقد اعترف دارون ذاته فى نهاية حياته أن الكلمة الأخيرة عنده هى أن المسألة خارجة عن نطاق العقل..

وأخيرا نقول مع يوسف كرم[2]:

إن النوع ثابت من حيث الجوهر، متغير من حيث العرض، ولكن دارون اتخذ التغير العرضى معيارا، وفسر الأنواع أنفسها كما تفسر الأصناف..

وقد نسلم بالتطور ثم نرانا مضطرين إلى اعتبار الإنسان نوعا قائما بذاته بسبب ما يختص به من علم ولغة وفن وصناعة وخلق ودين، وهى مظاهر للعقل لا نظير لها ولا أصل فى سائر الحيوان.

وقد نسلم بالتطور ثم نرانا مضطرين إلى الإقرار بموجد للمادة موجه لها لقصور المادة عن تنظيم نفسها.

ولكن من العلماء والفلاسفة من يفكرون كالعامة بالمخيلة دون العقل فيسيغون المحالات».

مرحلة الإثبات:

فى نقدنا السابق – فى مرحلة النفى – تدليل ضمنى على إثبات الوجود المتميز للروح المغاير للبدن، لأن الأمر منحصر فى قسمين متى بطل أحدهما ثبت الآخر، فالإنسان إما أن يكون هذا البدن فقط أو شيئا مغايرا له..

وسندلى هنا بمزيد بيان وتفصيل ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾.

١ - البرهان الطبيعى:

يقوم هذا الدليل على فكرة الحركة الإرادية للإنسان، ما مصدرها؟ هل العلة فيها أنه جسم؟.

لو كان الأمر كذلك لتحرك كل من النبات والحجر حركة إرادية لأن كل متحيز فهو جسم..

فالحركة الإرادية – إذن – لا تصدر عن الجسم.

هل العلة فيها هذا المزاج الناشئ عن اجتماع العناصر المادية المختلفة؟! كلا فالمزاج يمانع الإنسان كثيرا فى حركته، كما إذا صعد الإنسان جبلا فهو يريد – باستمرار – أن يصل إلى فوق

---

(١) سورة الواقعة آية ٥٨، ٥٩.

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣٥٥.

ولكن هيئته التركيبية المادية تشده دائما إلى الأرض بفعل جاذبيتها وبسبب انتمائه إلى عناصرها..

فالحركة الإرادية ليست ناشئة عن الجسمية ولا عن المزاج الخاص وإنما مبدؤها الذى تصدر عنه هو النفس..

وقد عبر ابن سينا عن هذا الدليل بقوله الموجز[1]: «الإنسان يتحرك بشيء غير جسميته التى لغيره، وبغير مزاج جسمه الذى يمانعه كثيرا حال حركته..».

٢ - برهان الاستمرار:

وخلاصة هذا الدليل أن هناك فرقا بين النفس والبدن ولا علاقة للنفس بمظاهر الجسد التى تتعاقب عليها الأضداد، وينتابها من التغير والضعف والفساد ما لا ثبات معه.

والغذاء المستمر للإنسان إنما هو لحفظ الجسم وبناء ما يتحلل منه، وتذهب أعضاء الإنسان عضوا عضوا.. ومع كل هذا فالنفس واحدة لا تتبدل، وقواها العقلية على أشدها لم ينتقص منها ما يوازى العضو الجريح أو الجزء المريض..

وقد ثبت علميا أن خلايا الجسم تتجدد باستمرار حتى يأتى وقت لا يكون فى الجسم خلية قديمة ومع هذا الفناء البدنى فإن الإنسان هو الإنسان بعقله وسلوكه.. فالروح شيء غير الجسم وهى باقية رغم فنائه..

يقول ابن سينا[2]: تأمل أيها العاقل فى أنك اليوم فى نفسك هو الذى كان موجودا جميع عمرك حتى إنك تتذكر كثيرا مما جرى من أحوالك؛ فأنت إذن ثابت مستمر لا شك فى ذلك، وبدنك وأجزاؤه ليس ثابتا مستمرا بل هو أبدا فى التحلل والانتقاص، ولهذا يحتاج الإنسان إلى الغذاء بدل ما تحلل من بدنه.. ولهذا لو حبس عن الإنسان الغذاء مدة قليلة نزل وانتقص قريب من ربع بدنه فتعلم نفسك أن فى مدة عشرين سنة لم يبق شيء من أجزاء بدنك، وأنت تعلم بقاء ذاتك فى هذه المدة بل جميع عمرك فذاتك مغايرة لهذا البدن وأجزائه الظاهرة والباطنة.

فهذا برهان عظيم يفتح لنا باب الغيب فإن جوهر النفس غائب عن الحواس والأوهام فمن تحقق عنده هذا البرهان وتصوره فى نفسه تصورا حقيقيا فقد أدرك ما غاب عن غيره».

وإذا اعترض على هذا الدليل بأن النفس قد تنسى معقولاتها عند المرض أو تضعف عند الشيخوخة فإن ابن سينا يقول: ليس لهذا الاعتراض اعتبار لأن النفس لها فعلان: فعل

---

(١) الإشارات - تحقيق د. سليمان دنيا ص ٣٢٥ جـ ٢.

(٢) أحوال النفس - تحقيق د. الأهوانى ص ١٨٣.

بالقياس إلى البدن وهو السياسة، وفعل بالقياس إلى ذاتها وهو التعقل وهما متعاندان متمانعان فإذا اشتغلت النفس بأحدهما انصرفت عن الآخر.. ثم يوضح هذا بقوله[1]:

وشواغلها من جهة البدن الإحساس والتخيل والشهوات والغضب والخوف والغم والوجع.. وأنت تعلم هذا بأنك إذا أخذت تفكر فى المعقول تعطل عليك كل شىء من هذه إلا أن تغلب أو تقسر النفس بالرجوع إلى جهتها، وأنت تعلم أن الحس يمنع النفس عن التعقل فإنها إذا أكبت على المحسوس شغلت عن المعقول من غير أن يكون أصاب آلة العقل أو ذاتها آفة بوجه، وتعلم أن السبب فى ذلك هو اشتغال النفس بفعل دون فعل».

ويستدل الشيخ الرئيس على ذلك وأن الأمر مجرد انصراف عن فعل إلى آخر بأن المرض لو كان يفسد الصور المعقولة ويؤثر فيها ويبطل وجودها لكان الشفاء من المرض يحوج الإنسان إلى اكتساب المعقولات كلها من جديد، وليس الأمر كذلك فإنه قد تعود النفس عاقلة لجميع صورها، فقد كانت - إذن - كلها معها إلا أنها شغلت عنه.

ويدلى ابن سينا بمزيد بيان فيؤكد أن التمانع فى أفعال النفس ليس فقط لاختلاف جهتى فعلها من حيث البدن ومن حيث ذاتها بل إن كثرة أفعال الجهة الواحدة قد توجب هذا التمانع بعينه، فالخوف يغفل عن الوجع، والشهوة تصد عن الغضب، والغضب يصرف عن الخوف.. والسبب فى كل ذلك واحد وهو انصراف النفس بالكلية إلى أمر واحد.

٣ - برهان الرجل المعلق:

يقوم هذا الدليل على أن الإنسان هو النفس بالحقيقة وأن الجسد ما هو إلا ثوب اكتسته النفس لمدة معينة، ولابد لها من خلع الثوب أو تغييره.. إلا أننا - لطول رؤيتنا له - ظننا ه لازما لها وجزءا منها.

وأدع ابن سينا يشرح لنا هذا الدليل فيقول[2]: يتوهم الواحد منا كأنه خلق دفعة، وخلق كاملا، لكنه حجب بصره عن مشاهدة الخارجات (ما حوله)، وخلق يهوى فى هواء أو خلاء هويا لا يصدمه فيه قوام الهواء صدما يحوجه إلى أن يحس، وفرق بين أعضائه فلم تتلاق ولم تتماس.

ثم يتأمل أنه يثبت مع ذلك طرفا من أعضائه ولا باطنا من أحشائه، ولا قلبا ولا دماغا، ولا شيئا من الأشياء من الخارج.. بل كان يثبت ذاته ولا يثبت لها طولا وعرضا ولا عمقا،

---

(١) أحوال النفس ص ٩٤.

(٢) الشفاء جـ ١ ص ٢٨٢.

ولو أنه أمكنه فى تلك الحال أن يتخيل يدا أو عضوا آخر لم يتخيله جـزءا مـن ذاتـه ولا شـرطا للذات التى أثبت وجودها خاصية لها على أنها هو بعينه غير جسمه وأعضائه التى لم تثبت.

وقد اختصر ابن سينا هذا الدليل فى كتابه «الإشارات والتنبيهات» فقـال[1]: ولـو توهمـت أن ذاتك قد خلقت أول خلقها صحيحة العقل والهيئة وفرض أنها على جملة مـن الوضـع والهيئـة لا تبصر أجزاءها ولا تتلامس أعضاؤها بل هى منفرجة ومعلقة لحظة ما فى هواء طلق - وجدتها قد غفلت عن كل شىء إلا عن ثبوت أنيتها»..

وهذا الدليل قريب من دليل «ديكارت» السابق والذى يقول فيـه: أنـا أشـك فأنـا أفكـر فأنـا موجود.

فالوجود الذى أثبته ديكارت هو وجود النفس وليس الجسم الذى جعله من العالم الخـارجى وأثبته فى مرحلة تالية.

٤ - تضاد أحوال النفس وأحوال الجسد:

وقد استدل بذلك الإمام الرازى فى تفسيره[2] وذكر أحوالا منها:

١ - أن المواظبة على الأفكار الدقيقة لها أثر فى النفس وأثر فى البدن، أما أثرها فـى النفـس فهو تأثيرها فى إخراج النفس من القوة إلى الفعل فى التعقلات والإدراكات، وكلما كانت الأفكار أكثر كان حصول هذه الأحوال أكمل وذلك غاية كمالها ونهاية شرفها.

وأما أثرها فى البدن فهو أنها توجب استيلاء اليبس على البدن والذبـول عليـه وهـذه الحـال لو استمرت لأفضت إلى الجنون أو الموت.

ومن هنا فإن هـذه الأفكـار توجـب حيـاة النفـس وشـرفها وتوجـب نقصـان البـدن وموتـه، فلو كانت النفس هى البدن لصار الشىء الواحد سببا لكماله ونقصانه معًا، ولحياته وموتـه معـا، وإنه محال.

٢ - إن أصحاب الرياضات والمجاهدات كلما أمعنوا فى قهر القوى البدنية وتجويـع الجسـد قويت قواهم الروحيـة وأشـرقت نفوسـهم بالمعـارف الإلهيـة، وكلمـا أمعـن الإنسـان فـى الأكـل والشرب وقضاء الشهوة الجسدية صار كالبهيمة وبقى محروما من آثار العقل والمعرفة.. ولـولا أن النفس غير الجسد لما كان الأمر كذلك.

---

(١) الإشارات جـ ٢ ص ٣٢٠.

(٢) التفسير الكبير جـ ٢١ ص ٥١.

٥ - البرهان الشرعى:

وهو خاص بمن ينكر وجود الروح من المسلمين:

(أ) تظاهرت الآيات والأحاديث على أن النفس غير البدن فالنفس من روح الله والبدن من طين.. هكذا كان آدم عليه السلام كما قال تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾[1].

وهكذا تنشأ ذريته من بعده فقد قص الحق تبارك وتعالى مراحل خلق الإنسان فى قوله:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾

وهذه مراحل خلق البدن، ولما أراد سبحانه التذكير بحلول الروح قال:

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[2].

فهذا يدل على أن الروح جنس مغاير لما سبق ذكره من أحوال البدن.

(ب) إن القرآن والحديث يخبرنا أن جماعة من اليهود قد مسخهم الله تعالى قردة وخنازير. فهل اليهودى الذى مسخ بقى إنسانا أم لا؟.

إن قلنا إنه لم يبق إنسانا حال المسخ كان هذا إماتة لليهودى وخلقا للقرد وليس من باب المسخ فى شىء، وإن قلنا إن ذلك اليهودى بقى إنسانا حال المسخ يحس بألمه ويشعر بذنبه ويقاسى عقابه وعذابه كان الإنسان باقيا بنفسه غير باق ببدنه وهيكله المادى.

(جـ) كان الرسول ﷺ يرى جبريل الأمين عليه السلام فى صورة دحية الكلبى، وتمثل جبريل لمريم عليها السلام بشرًا سويا، ودخل الملائكة على إبراهيم الخليل عليه السلام ضيفا مكرمين.. فهاهنا صورة الإنسان وبدن البشر مع أن حقيقة الإنسان غير حاصلة، فدل ذلك على أن الإنسان ليس خاصا بهذه البنية المادية المشاهدة بل وراءها روح هى الإنسان بالحقيقة.

---

(١) سورة ص آية ٧١ ، ٧٢.

(٢) سورة المؤمنون آية ١٤.

تصورات الوجود الروحى:

إلى هنا نكون قد أثبتنا للروح وجودا مغايرا للجسد المادى المحسوس، لكن ما حقيقة هذا الوجود؟.

هل الروح جوهر مجرد عن المادة أم جسم نورانى لطيف؟.

أقوال الفلاسفة:

ذهب جمهور الفلاسفة الإسلاميين كالفارابى وابن سينا وتبعهم الغزالى وجمع من الصوفية - إلى أن النفس مجردة عن المادة ليست جسما ولا عرضا لجسم. ولا طول لها ولا عرض، وهى تتعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف كتعلق العاشق بالمعشوق وليست متعلقة به تعلق الحلول والتداخل كتعلق الصورة بالمادة والعرض بالجوهر، ولا تعلق مجاورة كتعلق الإنسان بثوبه.. والنفس بهذا المعنى تفيض من واهب الصور وهو آخر مراتب العقول، وهى وسط بين العالم العقلى والعالم المادى، فهى تتجه نحو العالم العلوى فتتلقى منه الفيض ثم تولى وجهها شطر البدن فتفيض عليه وتدبره.

يقول ابن سينا[1]: والنفس الناطقة إذا أقبلت على العلوم سمى فعلها عقلاً وسميت بحسبه عقلاً نظريًا. وإذا أقبلت على قهر القوى الذميمة الداعية إلى الجريرة بإفراطها، والغباوة بتفريطها، والتهور بثوراتها، والجبن بفتورها، والفجور بهيجانها، والكسل بخمودها فتستخرجها إلى الحكمة والتجلد والعفة، وبالجملة إلى العدالة، سمى فعلها سياسة، وسميت بحسبه عقلاً عمليًا.

وقد تستمد القوة الناطقة فى بعض الناس من اليقظة والاتصال بالعقل الكلى بما ينزهها عن الفزع عند التعرف إلى القياس والروية، بل يكفيها مؤونتها الإلهام والوحى، وتسمى خاصيتها هذه تقديسًا، وتسمى بحسبه روحًا مقدسًا، ولن يحظى بهذه الرتبة إلا الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام».

ويذهب ابن عربى إلى أن الروح سر إلهى لطيف ينسب إلى الله تعالى على الإجمال من غير تكيف، وكان ظهوره عن وجود لا عن عدم، فما حدث إلا إضافة التولية إليه بتدبير هذا البدن، وأعطى هذا المركب آلات روحانية حسية لإدراك علوم لا يعرفها إلا بواسطة هذه الآلات.

---

(١) أحوال النفس ص ١٧٠.

ويقول[1]: «اعلم أن الروح الإنسانى لما خلقه الله خلقه كاملاً عاقلاً بالغًا عارفًا مؤمنًا بتوحيد الله، مقرًا بربوبيته، وهو الفطرة التى فطر الله الناس عليها فلا يقبل الزيادة ولا النقصان كما يقبله الجسم لعدم التركيب».

رأى ديكارت:

وفى الفلسفة الحديثة نجد ديكارت يهتم بتمييز الروح عن الجسد، وتحديد خصائص كل منهما، فاعتبر الروح جوهرًا غير مادى أخص صفاته الفكر، واعتبر الجسم جوهرًا ماديًا أخص صفاته الامتداد والتحيز، فهما متضادان يؤلفان موجودًا واحدًا يتبادلان التأثير والتأثر، فالنفس تؤثر فى الجسم عن طريق الغدة الصنوبرية الموجودة فى المخ التى تتلقى وحى الإرادة لتنقله إلى المخ والأعصاب، ويؤثر الجسم فى النفس عن طريق الحواس التى تنقل إليها صور العالم الخارجى.

والنفس ليست قاطنة فى محل خاص بالجسم كربان السفينة بل هى متحدة معه اتحادًا جوهريًا يؤلف كلاً واحدًا، ويذهب بعض الباحثين إلى أن مذهب ديكارت ثنائى لا اتحاد فيه وأن النفس حالة فى الجسد مجرد حلول «إذ يستحيل تصور اتحاد حقيقى بين جوهرين تامين، وتصور تفاعل حقيقى بين جوهرين متضادين»[2].

تفسير آخر:

ويقدم يوسف كرم تفسيرًا آخر لعلاقة الروح والجسد فيقول[3]: الإنسان مركب من جوهر روحى وآخر جسمى يؤلفان فيه موجودًا واحدًا، لا كلا مجموعيًا يتجاور فيه الجوهران ويتفاعلان من خارج على ما اعتقد أفلاطون وديكارت.

ليس هذا الاتحاد عرضيًا كالذى بين جوهرين تامين، ولكنه جوهرى حاصل من جوهرين ناقصين، كل منهما مفتقر للآخر متمم له، من النفس يقبل الجسم تركيبه ووحدته وحياته وسائر ما يجعله جسمًا إنسانيًا، وحالما تفارقه بالموت ينحل إلى عناصره، وتبقى النفس متقومة بذاتها، ولكنها فى هذه الحياة جوهر ناقص لا يستطيع دون الجسم أن تزاول أفعال قواها التى تقتضى مشاركة الأعضاء مباشرة مثل الإحساس والتخيل والتذكر.

---

(١) ابن عربى مفسرًا - د. حامد الزفرى جـ ٢ ص ٣٣٤ (مخطوط) بكلية أصول الدين.

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٨٤.

(٣) الطبيعة وما بعد الطبيعة ص ١٢٣.

فالنفس الإنسانية ناطقة بالذات، نامية وحاسة بقوى فيها تحدث الأفعال النامية والحاسة في الجسم ومعه.. لذا كانت القوى النامية والحاسة قوى المركب من النفس والجسم لا قوى النفس وحدها، بينما العقل والإرادة قوتان مفارقتان بذاتهما للمادة، فهما للنفس وحدها..

ثم ينتهي إلى القول بأن الإنسان ليس جوهرًا روحيًا محضًا يستخدم الجسم من الخارج ولكنه صنعة خاصة قوامها نفس معدة بالطبع للاتحاد بجسم اتحادًا جوهريًا لمزاولة وظائفها بحيث يكون الجسم تكملة ضرورية لها لا قيدًا ولا عائقًا..

***

أقوال المتكلمين:

ويرى جمهور المتكلمين نفي المجردات على الإطلاق عقولاً كانت أو نفوسًا، وفي تصورهم للروح نرى أقوالاً منها:

(أ) قال بعض المالكية إن الروح جسم ذو صورة كصورة الجسد في الشكل والهيئة، ويوضح ذلك عبد الرحيم بن خالد فيدعي أن الروح ذو جسم ويدين ورجلين وعينين ورأس، تسل من الجسد سلاً، ولما اعترض عليه بأنه إذا قطع عضو من الإنسان لزم قطع نظيره من الروح، أجيب بأن لطافتها تقتضي سرعة انجذابها من ذلك العضو المقطوع قبل انفصاله[1].

(ب) ومنهم من يقول إن الروح عبارة عن أجزاء نورانية سماوية لطيفة الجوهر، على طبيعة ضوء الشمس وهي لا تقبل التحلل والتبدل ولا التفرق والتمزق، فإذا تكون البدن وتم استعداده وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ نفذت تلك الأجسام الشريفة السماوية الإلهية في داخل الجسم نفاذ النار في الفحم ونفاذ دهن السمسم في السمسم، ونفاذ ماء الورد في الورد، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ .

ثم إن البدن مادام سليمًا قابلاً لنفاذ تلك الأجسام الشريفة بقي حيًا فإذا تولدت في البدن أخلاط غليظة منعت تلك الأخلاط من سريان تلك الأجسام الشريفة فتنفصل عن البدن وحينئذ يعرض الموت..

ورجح ذلك الرأي الإمام الرازي في تفسيره وقال عقب حكايته[2]: «فهذا مذهب قوي شريف يجب التأمل فيه فإنه شديد المطابقة لما ورد في الكتب الإلهية من أحوال الحياة والموت».

---

(١) تحفة المريد على جوهرة التوحيد للعلامة الباجوري.

(٢) مفاتيح الغيب جـ ٢١ ص ٤٥.

جدل بين المتكلمين والفلاسفة:

هذا وقد احتدم الجدل بين القائلين بتجرد الروح والقائلين بجسميتها حتى إن الإمام ابن القيم استدل على مادية الروح بأكثر من مائة دليل وحكى للمخالفين أكثر من عشرين دليلاً ثم ردها[1].

ونسوق هنا ثلاثة نماذج لأدلة القائلين بماديتها لنرى كيف يستدلون[2]:

النموذج الأول:

قال تعالى:

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[3].

قال ابن القيم: في الآية ثلاثة أدلة:

١ - الإخبار بتوفيها.

٢ - إمساكها.

٣ - إرسالها.

النموذج الثاني:

حديث أبي موسى: «تخرج نفس المؤمن أطيب من ريح المسك فتنطلق بها الملائكة الذين يتوفونه فتلقاهم ملائكة من دون السماء فيقولون هذا فلان بن فلان كان يعمل كيت وكيت بمحاسن عمله فيقولون مرحبًا بكم وبه فيقبضونها منهم، فيصعد به من الباب الذى كان يصعد منه عمله فيشرق في السموات وهو كبرهان الشمس حتى ينتهى بها إلى العرش، وأما الكافر فإذا قبض انطلق بروحه فيقولون من هذا؟ فيقولون فلان بن فلان كان يعمل كيت وكيت لمساوئ أعماله، فيقولون لا مرحبًا ردوه، فيرد إلى أسفل الأرضين إلى الثرى..».

قال ابن القيم: فيه عشرة أدلة هى:

١ - خروج نفسه.

٢ - طيب ريحها.

---

(١) الروح ص ٢٦٧ : ٣٢٣.

(٢) أما أدلة القائلين بتجردها فهى نفس الأدلة التى سقناها سابقًا فى مرحلة الإثبات للدلالة على وجود الروح فهى تثبت الوجود وزيادة.

(٣) سورة الزمر آية ٤٢.

٣ – انطلاق الملائكة بها.

٤ – تحية الملائكة لها.

٥ – قبضهم لها.

٦ – صعودهم بها.

٧ – إشراق السموات لضوئها.

٨ – انتهاؤها إلى العرش.

٩ – قول الملائكة من هذا؟ وهذا سؤال عن عين وذات قائمة بنفسها.

١٠ – قوله ردوه إلى أسفل الأرضين.

النموذج الثالث:

إن روح النائم يحصل لها فى المنام آثار فيصبح يراها على البدن عيانًا وهى من تأثير الروح فى الروح كما ذكر القيروانى فى كتاب «البستان عن روض السلف» قال:

كان لى جار يشتم أبا بكر وعمر رضى الله عنهما فلما كان ذات يوم أكثر شتمهما فتناولته وتناولنى فانصرفت إلى منزلى وأنا مغموم حزين فنمت وتركت العشاء فرأيت رسول الله ﷺ فى المنام فقلت: يا رسول الله فلان يسب أصحابك قال من أصحابى؟ قلت: أبو بكر وعمر فقال: خذ هذه المدية فاذبحه بها فأخذتها فأضجعته وذبحته ورأيت كأن يدى أصابها من دمه فألقيت المدية، وأهويت بيدى إلى الأرض لأمسحها فانتبهت وأنا أسمع الصراخ من نحو داره، فقلت ما هذا الصراخ؟ قالوا فلان مات فجأة، فلما أصبحنا جئت فنظرت إليه فإذا خط موضع الذبح!!.

***

نتيجة ورأى:

والحق الذى لا مرية فيه أن للنفس وجودا مغايرا للبدن المادى المحسوس وأن الدلائل الشرعية والبراهين العقلية قد تظاهرت على إثباته وأجمعت على وجوده..

وما وراء ذلك من اختلاف فى ماهية هذا الوجود هل هو مادى أم مجرد؟ فشىء غير الاعتقاد الواجب، ولم يقم دليل قطعى على تجرد الروح وإن كان القول بالنفوس المجردة – كما حكى السعد عن الرازى[1] – لا يرفع أصلاً من أصول الدين بل ربما يؤيده ويبين الطريق إلى إثبات المعاد بحيث لا تقدح فيه شبه المنكرين».

---

(١) شرح المقاصد تحقيق د. عبد الرحمن عميرة جـ ٥ ص ٩٠.

وإذا كان الغزالى قد شاق المتكلمين فى رأيهم بمادية الروح فإنه قد أتى على براهين الفلاسفة فى تجرد الروح من القواعد فى كتابه «تهافت الفلاسفة» الذى ساقه أساسًا لتحطيم المذهب العقلى فى ادعائه معرفة حقائق الغيب بمنطق العقل وحده ويقول[1]: «ولسنا نعترض على دعواهم (معرفة كون النفس جوهرًا قائمًا بنفسه ببراهين العقل) اعتراض من يبعد ذلك من قدرة الله تعالى أو يرى أن الشرع جاء بنقيضه بل ربما تبين فى تفصيل الحشر والنشر أن الشرع مصدق له ولكننا ننكر دعواهم دلالة مجرد العقل عليه والاستغناء عن الشرع فيه».

ومن هنا فإن اعتراض الغزالى على الفلاسفة فى كتاب «تهافت الفلاسفة» ينبغى أن يؤخذ بشىء من الحذر حيث إنه لم يلتزم فيه إثبات المذهب الحق، فهو يقول[2]: «إن ذلك الكتاب «تهافت الفلاسفة» مصنف لإبطال مذهبهم لا لإثبات المذهب الحق».

بل إن الغزالى استعمل نفس أدلة ابن سينا ونص عبارته فى كتابه معارج القدس، ليستدل على تجرد الروح وقال عقب حكاية الأدلة «فثبت بهذا وجود النفس وثبت على الجملة أنه جوهر وثبت أنه منزه عن المادة والصور الجسمانية».

ومن جهة أخرى فلم يثبت دليل قطعى على مادية الروح وما استدل به ابن القيم ظواهر نصوص، ولا بعد فى أن يكون الإخبار بتوفى الروح وإمساكها وإرسالها مجازا عن قطع التعلق والتدبير للجسد، خصوصًا مع ملاحظة الاستعمال القرآنى لمثل هذه الألفاظ فى جانب الحق تبارك وتعالى كقوله: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾[3] وقوله: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾[4] وقوله: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[5]. فالله تعالى منزه عن المادة وخواصها

وبعض أدلة ابن القيم أحاديث فيها مقال وعلى فرض صحتها فالتأويل سائغ، والبعض الآخر آراء لا يعول عليها ولا يؤخذ منها حكم شرعى كالرؤى والأحلام، وما استدل به من أدلة العقل فيمكن مناقشتها.

وبعد:

فإن الذى يعنينا هو أن توجد الروح وتناط بها التكاليف فى الدنيا وتنال جزاء فى الآخرة هى والجسد معًا كما كانا فى الدنيا، كائنة ما كانت حقيقتها ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾.

---

(١) تهافت الفلاسفة – تحقيق د. سليمان دنيا ص ٢٥٦.

(٢) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٠٩ ط صبيح.

(٣) سورة الفجر آية ٢٢.

(٤) سورة الفتح آية ١٠.

(٥) سورة هود آية ٣٧.

الفصل الثانى

نشأة الروح

الإنسان روح وجسد..

وينشأ الجسد داخل قرار مكين هو رحم الأم، ويمر بأطوار مختلفة من نطفةٍ إلى علقة إلى مضغة مخلقة وغير مخلقة، ويظل إلى أجل مسمى، ثم يخرج طفلاً فشابًا مكتمل القوة ثم شيخًا كبيرًا فهرمًا إلى أرذل العمر ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾[1].

فكيف نشأت الروح؟

ومتى؟

للإجابة عن ذلك نستطلع رأى كل من الفلاسفة والمتكلمين ثم نعقب عليه بما يظهر كلمة الحق ويدحض شبه الغالين والمبطلين.

رأى الفلاسفة:

يرى الفلاسفة أن النفس جوهر مجرد هبط إلى البدن من العالم العلوى، وهى أزلية بناء على رأيهم فى العالم وأنه نشأ عن الله بطريق الفيض بواسطة العقول العشرة، تلك النظرية التى تقوم على أن الواحد من جميع الجهات لا يصدر عنه إلا واحد، ومن هنا لم يصدر عن الله تعالى إلا موجود واحد هو العقل الأول وهو جوهر محض ليس جسمًا ولا هيولى ولا صورة ولا عرضًا ولا نفسًا..

وهذا العقل الأول متكثر بالاعتبار فيصدر عنه باعتبار وجوده عقل ثان وهو عقل الفلك المحيط، وباعتبار إمكانه جسم وهو جسم الفلك المحيط، وباعتبار وجوبه بغيره وهو الله تعالى — نفس وهى نفس الفلك المحيط..

وهكذا يصدر عن العقل الثانى عقل ثالث ونفس وفلك إلى أن تنتهى العقول إلى عشرة..

والعقل العاشر هو عقل فلك القمر وهو العقل الفعال الذى تنشأ عنه النفس الإنسانية وهو الذى يدبر العالم المادى..

---

(١) سورة يس آية ٦٨.

والعقول العشرة قديمة عندهم لأنها تنشأ عن علم الله تعالى بما يجب عنه فلا يمكن أن تتأخر عن وجوده سبحانه لأنها معلولة له، والمعلول لا يتأخر فى الوجود عن علته.. لكن قدم العقول قدم زمانى لا ذاتى، لأن الله وحده هو الذى ينفرد بالقدم الذاتى كما ينفرد بالوجود الذاتى..

وهناك قصيدة لابن سينا يقول فيها[1]:

هبطت إليك من المحل الأرفع ... ورقـــاء ذات تعـزز وتمنـع
محجوبـة عن كل مقلة ناظـر ... وهى التى سفَـرت ولم تتبرقـع
وصلـتْ على كـره إليك وربما ... كرهت فراقك وهى ذات تفجع
وأظنها نسيت عهودًا بالحمى ... ومنازلاً بفراقهـــا لم تقنـع
تبكى إذا ذكرت ديارًا بالحمى ... ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
فلأى شىء أهبطت من شامخ ... سام إلى قعر الحضيض الأوضع
إن كان أهبطها الإله لحكمة ... طويت عن الفذ اللبيب الأروع
فهبوطها لا شك ضربة لازب ... لتكون سامعـــة لما لم تسمع

توضيح:

١ – تذكرنا هذه القصيدة برأى أفلاطون الذى ذهب إلى أن النفس قديمة كانت فى عالم المثل – وهو العالم الحقيقى – وأنها هبطت منه كارهة وأن من طبيعتها أن تحاول الصعود والفرار من العالم المحسوس.

٢ – النفس جوهر بعيد عن الحس لا تدركه الأبصار مع أنها شديدة الظهور لدى العقل بآثارها عن طريق الوظائف والقوى التى تنشأ عنها لاتصالها بالبدن.

٣ – على الرغم من أنها حلت بالبدن كارهة إلا أن طول ملازمتها له قد يجعلها تألفه وتأنس به وترضى بشهواته وتنسى حقائق الغيب وكمالها العلوى..

٤ – يتساءل ابن سينا عن سبب هبوطها من عليائها، ويخالف أفلاطون الذى ذهب إلى أن النفس وهى فى عالم المثل عجزت عن اللحاق بنفوس الكواكب فى إحدى محاولاتها فهبطت من علوها وحلت أبدان البشر عقابًا لها وتكفيرًا.. ويذهب ابن سينا إلى أن الهبوط كان لحكمة إلهية فإن اتصالها بالبدن يكسبها معرفة بالعالم الحسى وتمارس فيه كمالاتها النظرية والعملية.

---

(١) ذكر هذه الأبيات د. محمود قاسم فى كتابه «فى النفس والعقل» كما ذكرها د. محمد غلاب فى كتابه «المعرفة» مع اختلاف فى بعض الألفاظ وفى تركيب الأبيات.

تحقيق:

هذه القصيدة العينية التى تثبت للنفس وجودًا قبل البدن تتنافى مع رأى آخر لابن سينا يؤكد فيه أن النفس حادثة مع حدوث البدن وليس لها وجود سابق.. الأمر الذى دعا بعض الباحثين مثل الدكتور أحمد الأهوانى[1] إلى الشك فى نسبة هذه القصيدة للشيخ الرئيس، كما شك فيها الأستاذ أحمد أمين لعلو نظمها بالقياس إلى قصائده الأخرى..

وخلاصة دليل ابن سينا على حدوث النفس أنها إذا كانت موجودة قبل البدن فإما أن تكون واحدة أو كثيرة بعدد الأبدان التى تحل فيها..

وليست النفس واحدة لأنه إذا حصل بدنان، حصل فى البدنين نفسان فتنقسم بذلك النفس الواحدة وهذا ظاهر البطلان..

أو تكون النفس الواحدة فى بدنين فى آن واحد وهذا لا يحتاج إلى تكلف فى إبطاله..

وليست النفس متكثرة بحسب عدد الأبدان، وذلك لأن النفس «ماهية» فقط والماهية أو الصورة واحدة لا تنقسم..

فالنفس تحدث كلما يحدث البدن الصالح لاستعمالها إياه ويكون الحادث مملكتها وآلتها..

أما بعد مفارقة البدن فإن الأنفس تكون قد وجدت كل واحدة منها ذاتا منفردة باختلاف موادها التى كانت، وباختلاف أزمنة حدوثها، واختلاف هيئاتها التى لها بحسب أبدانها المختلفة.

***

وأيًّا ما كان فإن النفس سواء كانت قديمة أو حادثة فإنها صادرة عندهم عن العقل العاشر أو واهب الصور أو روح القدس وهو عقل فلك القمر المشرف على عالم الكون والفساد..

وقد أنكر أبو البركات البغدادى أن تكون علة النفوس واحدة هى العقل الفعال لما ثبت من اختلاف الطبائع والأحوال، ويذهب إلى أن النفوس الإنسانية ترجع بالعلية إلى الأشخاص السماوية من الكواكب وروحانياتها بل إن كل حادثات الكون والفساد ترجع بالسببية إلى هذه النفوس المتعلقة بالأجرام السماوية «المستديمة[2]» للحركة الدورية التى دوامها تغير، وتغيرها دوام يتصل بها الزمنى بالأزلى فى السببية والمحدث بالقديم فى المعلولية».

---

(١) أحوال النفس لابن سينا – ص ٣٤.

(٢) «المعتبر فى الحكمة» نقلاً عن كتاب «قراءات فى الفلسفة» د. على سامى النشار، د. محمد أبو ريان ص٧٩١.

ويرجع أبو البركات كثرة النفوس الإنسانية واختلافها إلى كثرة النفوس السماوية واختلاف أوضاعها وأنوارها وحركاتها إلا أن الكثرة ليست متساوية في الطرفين، ومن هنا يذهب أبو البركات إلى أن لكل مجموعة من النفوس الإنسانية علة واحدة ولهذا تتشابه هذه المجموعة البشرية وتتحاب وتتقارب في حين تتباين عن مجموعة أخرى وقد تتباغض معها بحسب أحوال عللها..

جدل حول قدم النفس:

هذا وقد احتج القائلون بقدم النفس بأدلة عقلية ونقلية، وذكر صاحب المواقف ثلاثة أدلة عقلية لهم وحكى ابن القيم استنادهم لبعض آيات القرآن الكريم.. ونحن نورد نموذجين لذلك أحدهما عقلي، والآخر نقلي:

النموذج العقلي:

لو كانت النفس حادثة لما كانت أبدية، والتالي باطل باتفاق فبطل ما أدى إليه وهو حدوث النفس وثبت نقيضه وهو قدمها.

ودليل الملازمة أن كل حادث داثر وفاسد.

قال صاحب المواقف[1]: والجواب المنع ومعنى القضية المذكورة أن كل حادث فهو في حد ذاته قابل للعدم وليس يلزم منه طريانه عليه لجواز أن يمتنع عدمه لغيره أبدًا».

النموذج النقلي:

قال الله تعالى في حق آدم عليه السلام، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ وروح الله قديم..

وقد رد ابن القيم على ذلك بأن المضاف إلى الله سبحانه نوعان:

١ – مالا يقوم بنفسه كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها فعلمه وكلامه وقدرته صفات له غير مخلوقة..

٢ – إضافة أعيان منفصلة عنه كالبيت والناقة والعبد والروح فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه ومصنوع إلى صانعه، لكنها إضافة تقتضي تخصيصًا وتشريفًا يتميز به المضاف عن غيره كبيت الله وإن كانت البيوت كلها ملكًا له، وكذلك ناقة الله والنوق كلها ملكه، وخلقه

---

(١) شرح المواقف جـ ٧ ص ٢٥٢.

ولكن هذه إضافة إلى إلهيته تقتضى محبته لها وتكريمه وتشريفه بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته حيث تقتضى خلقه وإيجاده، فالإضافة العامة، تقتضى الإيجاد، والخاصة تقتضى الاختيار: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ ..

وإضافة الروح إليه من هذه الإضافة الخاصة لا من العامة ولا من إضافة الصفات فتأمل هذا الموضع فإنه يخلصك من ضلالات كثيرة..»[1].

تعليق ونقد:

أولا: العقول والآلهة: إن نسبة التأثر فى أحداث العالم إلى عقول الأفلاك قال به بعض فلاسفة اليونان وكانت الوثنية اليونانية تعبر عنها بالآلهة فحورها فلاسفة الإسلام وأطلقوا عليها اسم العقول بدل الآلهة.. كعهدنا بهم فى التلفيق والتوفيق..

وإذا تساءلنا لم اقتصرت سلسلة العقول على عشرة فقط وكانت الأفلاك تسعة؟

فالجواب أن أرباب هذه النظرية أقاموها على مذهب بطليموس فى الفلك، والذى يدعى فيه أن الأرض مركز العالم وأن الكواكب السيارة تسعة..

وقد ثبت الآن علميًا خطأ هذه النظرية وتبين أن الشمس هى مركز العالم وأن الأرض والكواكب الأخرى هى التى تدور حولها، كما اكتشفت حديثًا كواكب جديدة..

وإن فلك القمر الذى نسبوا إلى عقله تدبير هذا الكون - قد وطئه الإنسان بقدمه وهبطت أول مركبة فضائية تقل رجلين أمريكيين على سطحه فى رحلة أبو للو «١١» يوم الأحد ٢٠ من يوليو سنة ١٩٦٩ الموافق ٦ من جمادى الآخرة سنة ١٣٨٩ هـ.

ألا ليت الفلاسفة عقلوا عقولهم ولم يطلقوا العنان لخيالهم..

ثانيًا: رفض فلسفى: ذكر الغزالى أن ما قيل فى العقول العشرة وتأثيرها فى العالم الأرضى وكيفية نشأتها - تحكمات باطلة وأنه على الحقيقة ظلمات بعضها فوق بعض ولو حكاه الإنسان عن رؤيا رآها لاستدل بها على سوء مزاجه.

وقد رفض ابن رشد أقوال الفارابى وابن سينا فى تلك النظرية، وهدم الأساس القائل: إن الواحد من جميع الجهات لا يصدر عنه إلا واحد، وبين أنهم قاسوا الغائب على الشاهد وليس بينهما إلا الاشتراك فى الاسم، وذلك أن الفاعل الغائب فاعل مطلق والفاعل الشاهد فاعل مقيد، والفاعل المطلق ليس يصدر عنه إلا فعل مطلق، والفعل المطلق ليس يختص بمفعول دون مفعول.

---

(١) الروح ص ٢٣.

وابن رشد – وهو الذى نصب نفسه محاميًا عن الفلسفة ضد هجمات الغزالى – قد اتهم الفارابى وابن سينا بالتقول على الحكماء والتخرص على الفلاسفة وتحريف مذهبهم وقال[1]:

فما أكذب هذه القضية «إن الواحد لا يصنع إلا واحدًا» على ما فهم ابن سينا وأبو نصر.

ثم قال: «والعجب كل العجب كيف خفى هذا على أبى نصر وابن سينا.. لأنهما أول من قال بهذه الخرافات فقلدهما الناس ونسبوا هذا القول إلى الفلاسفة».

وقد تهكم بهم أيضًا أبو البركات البغدادى ووصفهم بالتقليد الأعمى لأرسطو فهى آراء لا تخضع للبرهان والحجاج العقلى أخذوها مأخذ الوحى.

وقد أظهر تناقضهم مع المبدأ الذى اصطنعوه لأنفسهم وهو أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد، إذ كيف يجوزون صدور الثلاثة عن العقل؟ فما عللوا به هذا الصدور كان أحرى بهم أن يجعلوه عند المبدأ الأول «ويجعلوا[2] فى الترتيب أولا وثانيًا ومقدما وتاليًا كما جعلوا فى الثانى وهو بالأول أولى وكانوا يقولون عوض قولهم إن الثانى بما يعقل الأول يصدر عنه عقل وبما يعقل ذاته يصدر عنه جرم فلك ونفس – أن المبدأ الأول بما يعقل ذاته عقلا أوليًا بوحدانيته وبذاته (كما قالوا) يصدر عنه موجود هو أول مخلوقاته فإذا أوجده عرفه وعقله موجودا حاصلاً فى الوجود معه كان بما يعقله يصدر عنه آخر غيره وكذلك يعقل فيوجد، ويوجد فيعقل، وتكون مخلوقاته عنده دواعى مخلوقاته فيوجد ثان لأجل أول وثالث لأجل ثان..».

ثالثًا: **العقول والملائكة**: بعد أن عرفنا أن مبنى النظرية فاسد وأنها ليست محل إجماع الفلاسفة الإسلاميين – يمكننا أن ندرك سوء مسلك بعض المفكرين فى محاولة تبرير هذه النظرية إسلاميًا.. فقد حملوا العقول العشرة على الملائكة وزعموا أن العقل العاشر هو جبريل الأمين، وأن قوله تعالى: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾[3] يشير إلى الأفلاك التسعة فالعرش هو الفلك المحيط وتحته ثمانية أفلاك..

وعلى هذا فنحن نخالف ما ذهب إليه الدكتور محمد البهى فى قوله[4]:

إن من يرتضى القول بالوساطة من المسلمين يمكن أن يتخذ من مثل قوله تعالى:

---

(١) تهافت التهافت ص ٣٩٥ ، ٣٩٧.

(٢) المعتبر فى الحكمة نقلا عن كتاب قراءات فى الفلسفة د. النشار د. أبو ريان ص ٧٤٣.

(٣) سورة الحاقة آية ١٧.

(٤) الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى ج ٢ ص ٧٧ ، ١٤١.

﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾[1] وجها لتأييد الإسلام لها وليس فحسب دليلا على عدم تنافرها مع مبدأ من مبادئه، إذ ربما يحمل الآية على نوع الوساطة المقول بها وهي وساطة العقل بين الله والعالم، فيفسر «الكتاب المبين» فيها بالعقل، ووجه الشبه أن كلا منهما مكان للعلم والمعرفة ورتبة «الكتاب المبين» في الوجود قبل العالم من غير شك، وهو غير الله وغير العالم وإذن هو بينهما.

ويقول أيضًا: إن فكرة «العقول» كفكرة «الملائكة» لا تؤدى إلى اعتقاد شركة في التأثير في العالم ولا تقوم على أساس الشرك في نسبة التأثير فيه إلى مصادر متعددة، إذ مرد الأمر كله - مع الإيمان بها - إلى الله وحده، وعقيدة الوثنية اعتقاد ما يؤدى إلى الشرك وعبادة غير الله من قوى كونية مع الله أو دونه.

وأقول: إن هذا ضرب من الرمزية في التفسير، لا يستند إلى قواعد ولا يرجع إلى أصول..

وإن حقائق الغيب لا تخترع وإنما تعلم من الوحى المعصوم..

وإن الآراء التي يحاولون إضفاء الصفة الإسلامية عليها لا تخضع لبرهان وليس هناك ضرورة عقلية للقول بها اللهم إلا التقليد الأعمى..

ومتى كانت فكرة العقول بنظمها الخيالى وأساطيرها اليونانية الوثنية تتسامى إلى الوحى الإلهى في مثل قوله تعالى جبريل الأمين:

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾[2].

رابعًا: بقى أن نقف هنيهة مع أبى البركات فيما ذهب إليه من أن النفوس السماوية هى علة النفوس الإنسانية فنقول:

إن الادعاء بأن للسماء نفسًا تحركها - تحكم لا دليل عليه وما ساقوه من أدلة لا ينهض لنفى الاحتمالات الأخرى وإن أسرار الكون - كما يقول الغزالى[3] - لا يطلع عليها بأمثال هذه الخيالات وإنما يطلع الله عليها أنبياءه وأولياءه على سبيل الإلهام لا على سبيل الاستدلال.

ولنعلم أن قدرة الله تعالى تعم سائر الممكنات، والعجب من هؤلاء جميعًا كيف يحاولون عزل القدرة الإلهية عن مباشرة تأثيرها في الكون والكائنات ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[4].

---

(١) سورة يونس آية ٦١.

(٢) سورة التكوير آية ١٩ ، ٢١.

(٣) تهافت الفلاسفة ص ٢٢٤.

(٤) سورة الأعراف آية ٥٤.

رأى المتكلمين:

اتفق المليون - كما حكى صاحب المواقف[1] - على أن النفس الناطقة حادثة إذ لا قديم عندهم إلا الله.. سواء كانت مجردة أو جسمًا نورانيًا لطيفًا.

لكنهم اختلفوا هل تحدث مع حدوث البدن أم قبله؟ ولكل وجهة.

وجهة القائلين بالقبلية:

يرى هذا الفريق أن الأرواح موجودة قبل البدن وأنها كانت على اتصال بالملأ الأعلى حيث لم يحجبها حينئذ مادة ثقيلة أو شهوة دنيئة.. وهذه هى الفطرة الأولى التى فطر الله الناس عليها، ويؤيدون رأيهم بما يأتى:

١ - قال الله تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾[2]

فهذا هو الميثاق الأول والعهد العام الذى أخذه الله على الناس وهم فى عالم الذر فأقروا له سبحانه بالوحدانية.. ومعلوم أن هذا الإقرار لم يكن للأبدان حيث لم تخلق بعد، فدلّ ذلك على أنه من الأرواح فتكون مخلوقة قبل الأجساد.

ويصرح ابن عربى بأن الروح الإنسانى لما خلقه الله خلقه كاملاً عاقلاً بالغًا، عارفًا، مؤمنًا بتوحيد الله، مقرًا بربوبيته، بل يذهب إلى أن من خاصية الروح التجسد فهى لم تفارق بدنًا ما، منذ عالم الذر إلى أن يدخل الناس الجنة أو النار، كل ما هنالك أنها تستبدله، وهاهو ذا يقول[3]:

---

(١) المواقف جـ ٧ ص ٢٥٠.

(٢) سورة الأعراف آية ١٧٢.

(٣) الفتوحات جـ ١ ص ٨٢٩ نقلاً عن رسالة محيى الدين بن عربى مفسرًا د. الزفرى.

اعلم أن الروح الإنسانى أوجده الله حين أوجده مدبرًا لصورة طبيعية حسية سواء كان فى الدنيا أو البرزخ أو فى الدار الآخرة أو حيث كان، فأول صورة لبستها - الصورة التى أخذ عليها فيها الميثاق بالإقرار بربوبية الحق عليه، ثم إنه حشر من تلك الصورة إلى هذه الصورة الجسمية الدنيوية وحبس فيها فى رابع شهر من تكوين صورة جسده فى بطن أمه إلى ساعة موته، فإذا مات حشر إلى صورة أخرى من حين موته إلى وقت سؤاله فإذا جاء وقت سؤاله حشر من تلك الصورة إلى جسده الموصوف بالموت يحيا به، ويؤخذ بأسماع الناس وأبصارهم عن حياته بذلك الروح إلا من خصه الله تعالى بالكشف على ذلك من نبى أو ولى من الثقلين، وأما سائر الحيوان فإنهم يشاهدون حياته وما فيه عينًا وسماعًا.

ثم يحشر بعد السؤال إلى صورة أخرى فى البرزخ يمسك فيها بل تلك الصورة هى عين البرزخ، والنوم والموت فى ذلك على السواء، إلى نفخة البعث، فيبعث من تلك الصورة ويحشر إلى الصورة التى كان فارقها فى الدنيا إن كان بقى على سؤال، فإن لم يكن من أهل ذلك الصنف حشر فى الصورة التى يدخل بها الجنة أو النار، والمسئول يوم القيامة إذا فرغ من سؤاله حشر فى الصورة التى يدخل بها الجنة أو النار.

***

٢ - قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ ﴾[1].

وقد اعتبر هؤلاء أن «ثم» هنا للترتيب والمهلة وأن الخطاب لبنى آدم جميعًا، والمعنى أن الخلق للجميع كان أولاً ثم بعده كان التصوير للجميع أيضًا ثم تلى ذلك ظهور آدم وإدخاله الجنة ثم هبوطه إلى الأرض لابتداء الحياة البشرية فى ثوبها الجديد.

والذى خلق ثم صور قبل آدم لم يكن الجسد المادى المحسوس قطعًا فثبت الخلق والتصوير لأرواح بنى آدم جميعًا..

وهذا استدلال ظاهرى ساقه ابن حزم[2].

٣ - قال الرسول ﷺ.

«إن الله تعالى أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة وأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلا قبلا، قال ألست بربكم قالوا بلى».

٤ - وفى حديث آخر:

---

(١) سورة الأعراف آية ١١.

(٢) الفصل جـ ٤ ص ٥٦.

«إن الله تعالى أخذ ذرية آدم من ظهره ثم أشهدهم على أنفسهم ثم نثرهم فى كفيه أو كفه فقال هؤلاء فى الجنة وهؤلاء فى النار، فأما أهل الجنة فميسرون لعمل أهل الجنة وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار».

٥ - وفى حديث ثالث:

«إن الله خلق أرواح العباد قبل العباد بألفى عام فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف».

فهذه الأحاديث - فى رأيهم - صريحة فى تقدم خلق الأرواح على الأجساد.

وجهة القائلين بتأخر حدوث الروح:

يذهب هذا الفريق إلى القول بتأخر حدوث الروح عن البدن ولهم أدلة منها:

١ - قال الله تعالى فى خلق آدم عليه السلام: ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[1]

دلت الآية على أن نفخ الروح أى خلقها متأخر عن تسوية البدن.

٢ - قال سبحانه فى نشأة بنى آدم:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[2]

والمراد بهذا الإنشاء حدوث النفس بعد مرور البدن فى أطواره المختلفة.

٣ - قال الرسول ﷺ.

إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يومًا نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بكتب أربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد» رواه البخارى ومسلم.

فدل ذلك على أن خلق البدن متقدم على إرسال الملك لنفخ الروح أى خلقها حينئذ.

---

(١) سورة ص آية ٧١ ، ٧٢.

(٢) سورة المؤمنون آية ١٢ ، ١٤.

٤ -- قال الله تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1]

فلو كان للروح وجود قبل البدن لتذكرته وشعرت به فـي الطفولة المبكرة لقرب عهدها بـه ولكن الآية صريحة فى نفى مطلق المعرفة فى هذا الوقت، والنكرة فى سياق النفى تعم..

(١) سورة النحل آية ٧٨.

تعقيب ومناقشة

أولا: فهم غير سديد: محاولة إثبات «عالم الذر» بمفهوم قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ محاولة لا تساعدها صياغة النص ولا تساندها دلالة التعبير لوجوه منها:

(أ) قوله تعالى: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ بدل من قوله (بنى آدم) فيكون المعنى وإذ أخذ ربك من ظهور بنى آدم، وهذا بخلاف ادعائهم بأن الأخذ من ظهر آدم.

وما قاله البعض من أن الله أخرج ذرية آدم بعضهم من ظهور بعض على نحو ما يتوالدون فالأبناء من الآباء فى الترتيب، وكلهم بنو آدم فالمخرج من ظهورهم مخرج من ظهره — كلام مردود فالجميع فى هذا الوقت كالذر — فى زعمهم — لا ظهر له وليس هناك مخلوق بشرى سوى آدم.

(ب) أخبر سبحانه أن حكمة الإشهاد ألا يقولوا:
﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ وهذا غير متحقق فى آدم عليه السلام لأنه ما كان مشركا.. سواء قلنا إن الأخذ من ظهر آدم وحده أو من ظهره وظهر بنيه فجميع الشاهدين يقولون: ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ فلابد من الوصول إلى آدم قطعا للتسلسل وما كان من المشركين.

(جـ) تؤكد الآية أن هذا الإشهاد هو إقامة للحجة عليهم، وليس فى الميثاق الأول — كما يسمونه — حجة على البشر وقت أخذه لأنهم غير مكلفين ولا فى الدنيا لأنهم لا يذكرون منه شيئًا، ولم تقم على البشرية حجة إلا بالرسالات الإلهية بنص قوله تعالى:
﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾.

وليس لقائل أن يدعى أن إخبار القرآن بهذا العهد يجعله حجة عليهم وإن لم يذكروه لأن المشركين ينكرون جميع ما جاء به الرسول ﷺ فكيف يكون حجة مستقلة عليهم؟!.

ثانيا: تساؤلات بلا جواب: للإمام الشعرانى رسالة سماها (القواعد الكشفية فى الصفات الإلهية) وقد حكى عنها الإمام الجمل فى تفسيره وقال[1]:

---

(١) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين جـ ٢ ص ٢٠٨.

إن الإمام الشعرانى ذكر فيها عن هذه الآية اثنى عشر سؤالاً مع الإجابة عليها وهذه الأسئلة هى:

١ — أين موضع أخذ الله تعالى هذا العهد؟.

٢ — كيف استخرجهم من ظهره؟.

٣ — كيف أجابوه تعالى بـ (بلى)؟.

٤ — فإذا قال الجميع بلى فلم قبل تعالى قوما ورد آخرين؟.

٥ — إذا سبق لنا عهد وميثاق فلأى شىء لا نذكره اليوم؟.

٦ — هل كانت تلك الذرات مصورة بصورة الإنسان أم لا؟.

٧ — متى تعلقت الأرواح بالذرات التى هى الذرية هل قبل خروجها من ظهره أم بعد خروجها منه؟.

٨ — ما الحكمة فى أخذ هذا الميثاق منهم؟.

٩ — هل أعادهم إلى ظهر آدم أحياء أم استرد أرواحهم ثم أعادهم إليه أمواتا؟.

١٠ — أين رجعت الأرواح بعد رد الذرات إلى ظهره؟.

١١ — قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ والناس يقولون إن الذرية أخذت من ظهر آدم؟.

١٢ — فى أى مكان أودع كتاب العهد والميثاق؟.

هذه هى الأسئلة أما الإجابات فكلها احتمالات عقلية وتجويزات ليس لها من يقين العقل ولا صحيح النقل ما يوجب اعتقادها والإيمان بها بل إن بعضها مجرد وهم وخيال.

وإليك بعض الأمثلة لتلك الإجابة.

عن السؤال الأول:

إن الله تعالى أخذ ذلك عليهم ببطن نعمان وهو واد بجنب عرفة قاله ابن عباس وغيره، وقال بعضهم أخذه بسرنديب من أرض الهند وهو الموضع الذى هبط آدم فيه من الجنة؛ وقال الكلبى كان أخذ العهد بين مكة والطائف وقال الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه كان أخذ العهد فى الجنة. قال القرافى كل هذه الأمور محتملة ولا يضرنا الجهل بالمكان بعد صحة الاعتقاد بأخذ العهد.

وعن السؤال الثانى:

والجواب ورد فى الصحيح أنه تعالى مسح ظهر آدم وأخرج ذريته منه كلهم كهيئة الذر ثم اختلف الناس هل شق ظهره واستخرجهم منه أو استخرجهم من بعض ثقوب رأسه، وكلا الوجهين بعيد والأقرب كما قيل أنه استخرجهم من مسام شعر ظهره إذ تحت كل شعرة ثقبة دقيقة يقال لها سم، مثل سم الخياط فى النفوذ لا فى السعة، فتخرج الذرة الضعيفة منها كما يخرج الصئبان[1] من العرق السائل، وهذا غير بعيد فى العقل فيجب اعتقاد إخراجها من ظهر آدم كما شاء الله ولا يجوز اعتقاد أنه تعالى مسح ظهر آدم على وجه المماسة إذ لا اتصال بين الحادث والقديم.

وعن السؤال الرابع:

والجواب كما قاله الحكيم الترمذى أن الله تعالى تجلى للكفار بالهيبة فقالوا بلى مخافة منه فلم يك ينفعهم إيمانهم، وقال الشيخ أبو طاهر القزوينى الصحيح عندى أن قول أصحاب بلى كان على وفق السؤال وذلك أن الله تعالى سألهم عن تربيتهم ولم يسألهم عن إلههم ولم يكونوا يومئذ فى زمان التكليف وإنما كانوا فى حال التخليق والتربية وهى الفطرة فقال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، لأن تربيتهم إذ ذاك كانت مشهودة لهم فصدقوا كلهم فى ذلك، ثم لما انتهوا إلى زمان التكليف وظهر ما قضى الله تعالى فى سابق علمه لكل أحد من السعادة والشقاوة كان منهم من وافق اعتقاده فى قبول الإلهية إقراره الأول ومنهم من خالف.

ولو أنه تعالى كان قال لهم: ألست بواحد لقالوا كلهم نعم ولم يشرك به أحد (قال الشعرانى) فتأمل ولا يخفى ما فيه من فوات صورة الاحتجاج بالآية ا هـ.

ثالثًا: الميثاق والفطرة: جاء فى تفسير ابن كثير[2]: (قال قائلون من السلف والخلف إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد).

وقال فى حاشية الجمل[3]: وللخلف طريقة أخرى محصلها أنه لا إخراج ولا قول ولا شهادة بالفعل وإنما هذا كله على سبيل المجاز التمثيلى).

ومن المفسرين من اقتصر على هذا الرأى كالزمخشرى.. وعلى هذا يمكن أن نفهم الآية على الوجه التالى:

---

(١) الصئبان جمع صُؤابة وهى بيضة القملة.

(٢) تفسير القرآن العظيم المجلد الثالث ص ٥٠٦ ط الشعب.

(٣) جـ ٢ ص ٢٠٧.

التعبير العربى يجيز استعمال الماضى للمستقبل تأكيدا للوقوع كما فى قوله تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾.

والبيان القرآنى استعمل كلمة «الميثاق» فى قسميه المدنى والمكى والملاحظ أن التذكير بالميثاق فى القسم المدنى كان خاصًا بأهل الكتاب مثل قوله:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ﴾[1]

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾[2].

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾[3].

فهذا الميثاق الخاص بأهل الكتاب معناه أن الله بعث إليهم رسلا كثيرين وآتاهم من الكتاب والحكمة والملك ما يوجب عليهم أن يصدقوا بجميع رسله ولا يفرقوا بينهم وأن يكونوا أول المؤمنين بمحمد ﷺ لأنه يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل.

وفى القسم المكى نجد هذا الميثاق العام فى سورة الأعراف: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ.. الآية ﴾ وهو ميثاق الفطرة والعقل على البشرية عامة إذ استخرج من بنى آدم ذريتهم بطنا بعد بطن وأودع فيهم فطرة قبول الحق وأرشدهم إلى آيات الأنفس والآفاق وألزمهم الحجة بالشرع وبعثة الرسل وقال لهم قول إرادة وتكوين لا قول وحى وتلقين ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾، فقالوا بلسان الحال ولغة الاستعداد (بلى)، وصدق الله إذ يقول:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[4].

فالشهادة تارة تكون بالقول مثل ﴿ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ﴾[5].

وتارة تكون حالا أى بمنزلة الشاهدين على أنفسهم مثل:

---

(١) سورة البقرة آية: ٩٣.

(٢) سورة آل عمران آية: ١٨٧.

(٣) سورة المائدة آية: ١٣.

(٤) سورة فصلت آية: ٥٣.

(٥) سورة الأنعام آية: ١٣٠.

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾[1]. أى هم بمنزلة الشاهدين على أنفسهم بالكفر وإن لم يقولوا نحن كفار.

ومنه قوله تعالى أيضا: ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾[2]

ومما يؤكد أن العهد فى آية الأعراف هو الفطرة النقية الطاهرة قبل أن تدنسها البيئة بمفاسدها وباطل عقائدها ما روى الشيخان من قول الرسول ﷺ : «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه..» وكذا ما رواه مسلم فى الحديث القدسى «إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم».

رابعًا: الأحاديث الواردة: إن الأحاديث التى ذكروها فى إثبات «عالم الذر» لا تخلو من مقال وبعض رواتها ضعيف أو متروك أو مجهول.

فمثلا الحديث القائل «إن الله تعالى أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة».. إلخ رواه أحمد وهو موقوف على ابن عباس.

والحديث الثانى: «إن الله تعالى أخذ ذرية آدم من ظهره ثم أشهدهم.. إلخ».. رواه البزار والطبرانى بسند فيه بقية بن الوليد وهو ضعيف.

والحديث الثالث: «إن الله خلق أرواح العباد قبل العباد بألفى عام.. إلخ».. قال فيه ابن القيم[3]:

إسناده غير صحيح لأن فيه عقبة بن السكن، وقال الدارقطنى إنه متروك، وفيه أرطأة ابن المنذر، وقال ابن عدى بعض أحاديثه غلط.

والملاحظ كثرة الأحاديث والشواهد فى هذا الباب لكنها — فى جملتها — واردة فى القدر[4] ودالة على أن الله تعالى استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل النار، فهى أقرب ما يكون إلى تصوير العلم الإلهى الأزلى ولا تدل — كما يقول ابن القيم[5] — على أنها خلقت خلقًا مستقرا ثم استمرت موجودة حية عالمة ناطقة، كلها فى موضع واحد ثم ترسل منه إلى الأبدان جملة بعد جملة كما قاله أبو محمد بن حزم، فهل تحمل الآثار ما لا طاقة لها به؟.

---

(١) سورة التوبة آية: ١٧.

(٢) سورة العاديات آية: ٧.

(٣) الروح ص ٢٥٦.

(٤) راجع جمع الجوامع العدد ١٢ جـ ١ ص ١٤٦٢ ط مجمع البحوث.

(٥) الروح ص ٢٤٠.

والإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو – كما يقول ابن كثير[1] – إلا فى حديث كلثوم ابن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وفى حديث ابن عمرو وهما موقوفان لا مرفوعان.

خامسًا: بحث اجتهادى: بعد هذا يحق لنا أن نطالب أحد العلماء أن يخفف من حكمه حيث يقول[2].

«وقد يتطاول البعض ويقحم أنف العقل فى هذه المسلمات الإلهية؟! ويريد أن يخضعها للموازين التى لا تؤمن إلا بالمشاهد المحسوس، ويتساءل عن الكيفية التى تم بها جمع الآدميين كلهم من ظهور آبائهم فى وقت لم تخلق فيه الآباء، ويتساءل كذلك عن كيفية الإقرار وهل هو بلسان الحال أم بلسان المقال، وكيفية التفريق بعد الجمع.. كل هذه التساؤلات تترى وتتداعى فى بعض نفسيات المارقين والمنكرين والجاحدين ممن يحكمون العقل ولا يقرون إلا له بالسلطان».

وأقول: ليس ههنا مسلمات إلهية معلومة من الدين بالضرورة، ولم يكن العلماء سلفًا وخلفًا ممن فهموا النصوص فهما آخر مارقين أو منكرين أو جاحدين وليس هناك تطاول وإنما مطالبة بالدليل!!..

سادسًا: رأى وترجيح: إن أدلة القائلين بتأخر حدوث النفس عن البدن هى دون اليقين الصريح لجواز أن يكون المراد مثلا بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ ﴾ هو تعلق الروح بالبدن لا حدوثها.. الأمر الذى جعل بعض العلماء يتوقف فيقول العضد الإيجى[3] مقارنًا بين هذه الآية ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ ﴾ والحديث القائل «إن الله خلق الأرواح قبل الأجساد بألفى عام» أما الحديث فهو خبر واحد فتعارضه الآية وهى مقطوعة المتن مظنونة الدلالة والحديث بالعكس فلكل رجحان من وجه فيتقاومان.

ولكنى أقول: إن الحديث ليس له وجه رجحان فإسناده غير صحيح كما سبق بيانه.

وأدلة تأخر الحدوث وإن كانت دون اليقين الصريح فهى أقرب إلى روح الشرع الذى نهانا عن اتباع الظن والرجم بالغيب.. وأبعد عن مظان الشبهات التى يثيرها القول بالقبلية لأن وجود النفوس قبل البدن يفتح الطريق أمام الأدعياء الذين يقولون بالمغايرة بين النفوس الجزئية والعقل الإنسانى العام فهو وحده الأزلى الأبدى أما النفوس الجزئية فتفنى بفناء الجسد، وليس هناك بقاء شخصى بناء على أن النفوس كلها متحدة دون تمييز، وليس فيها آباء وأبناء وأحفاد حيث قد وجدت كلها فى وقت واحد.

---

(١) تفسير القرآن العظيم المجلد الثالث ص ٥٠٦.

(٢) الحياة البرزخية فى القرآن للدكتور محمود بن الشريف ص ٨٥.

(٣) المواقف جـ ٣ ص ٢٥١.

الفصل الثالث

الروح مع البدن

تمارس الروح نشاطها بواسطة الجسد الذى يحيا بها، وتتنوع قواها وتتعدد وظائفها تبعا لحاجة الإنسان من تفكير وإحساس وسلوك، ويأتى فى قمة هذه الوظائف القوة العاقلة من الإنسان التى هى مناط تكليفه وكرامته، والتى يدرك بها الكليات والمعانى المجردة بعيدًا عن واقع الحس وملابسات المادة.

هذا وسنركز هنا على ظاهرتين أو جانبين من علاقة الروح بالجسد هما:

(أ) الإلهام أو المعرفة الإشراقية لنرى هل للجسد آثار مانعة من صفاء الروح وشفافيتها أم لا؟.

(ب) الرؤى والأحلام وحقيقة هذا الجانب الذى يقضى فيه الإنسان شطر عمره تقريبًا.. فإلى تفصيل ذلك وبالله التوفيق ..

المبحث الأول

المعرفة الإشراقية

التفكير أرقى العمليات العقلية لدى الإنسان، وهو يسعى لحل مشكلة ما أو تفسير موقف غامض.. ويبدأ من الإدراك الحسى ويعلو إلى مرتبة التجريد والتعميم..

والإدراك الحسى يرتبط بالحواس الظاهرة والباطنة، والمعرفة الناشئة عن ذلك قاصرة على ظواهر الأشياء دون بواطنها، وصورها دون حقائقها، التى لا تدرك إلا بالعقل الذى يصحح أغاليط الحس..

ويكاد يجمع الفلاسفة الإسلاميون على أن المعرفة الإنسانية لا يحصلها العقل الإنسانى باجتهاده وحده، ولكن فى ضوء العقل الفعال يستطيع العقل الإنسانى إدراك الصور الكلية مجردة عن علائقها المادية. فهم يجمعون بين نظر العقل أو التأمل الفلسفى وإشراق نور العقل الفعال طريقا للمعرفة ووصولا إلى السعادة، ويصورون ذلك بأن الإنسان إذا تطهر من الأدناس وسيطر على رغباته وشهواته وسلك طريق النظر والتأمل — زال عن نفسه الصدأ، وصفت

واستنارت بنور العقل الفعال،وحينئذ يستطيع أن يتمثل العقول المجردة ويتصل بالمبادئ العالية وتفيض عليه الأعاجيب مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر..

وقد تحدث عن هذه المعرفة الفارابى وابن سينا وابن ماجة وابن طفيل وكلهم يبدأون الطريق اعتمادا على العقل والرياضة الروحية حتى يصلوا إلى مرحلة الاستغراق والمشاهدة.

وعلى الطرف الآخر نجد المتصوفة يبدأون الطريق بقطع العلائق ومحو الصفات الذميمة وتقديم المجاهدة انتظارا للفيض.. بلا ضرورة تعليم أو تعلم..

ولدراسة هذه الاتجاهات نتخذ عدة نماذج:

فمن الفلاسفة ندرس:

(أ) ابن سينا ممثلا لفلاسفة المشرق.

(ب) ابن طفيل ممثلا لفلاسفة المغرب.

ومن المتصوفة ندرس:

(أ) الغزالى الذى انتهت الفلسفة على يديه فى المشرق وعلا قدم التصوف..

(ب) الدكتور عبد الحليم محمود الذى يتصدر مدرسة التصوف فى العصر الحديث..

رأى الفلاسفة

رأى ابن سينا:

للشيخ الرئيس رسائل وأبحاث عن المتصوفة [1] والمعرفة الإشراقية وأهمها الأنماط الثلاثة الأخيرة من كتابه «الإشارات والتنبهات» فهو آخر ما صنفه فى الحكمة الإلهية.

النمط الأول[2]: فى السعادة:

بدأ بمناقشة أوهام القائلين بأن اللذة الحسية هى كل شىء وأوضح أن هذه اللذات هى المنكوحات والمطعومات وأمور تجرى مجراها وأثبت أن هناك لذات باطنية أقوى من تلك اللذات الحسية، فلاعب الشطرنج قد يعرض له منكوح ومطعوم فيرفضه إيثارا للذة الغلبة الوهمية، كذلك فإن كبير النفس يستصغر الجوع والعطش عند المحافظة على ماء الوجه.

وليس ذلك من العاقل فقط بل فى العجم من الحيوانات فإن من كلاب الصيد ما يقتنص على الجوع ثم يمسكه على صاحبه، والمرضعة من الحيوانات تؤثر ما ولدته على نفسها.. فإذا كانت اللذات الباطنية أعظم من الظاهرة الحسية فما قولك فى العقلية؟!.

ثم يخلص إلى أن اللذة الحقيقية للإنسان هى فى الكمال الذى يخص الجوهر العقلى المميز للإنسان وهو:

أن يتمثل فيه جلية الحق قدر ما يمكنه أن ينال منه ببهائه الذى يخصه ثم يتمثل الوجود كله على ما هو عليه مجردا عن الشوب، مبتدأ فيه بعد الحق الأول بالجواهر العقلية العالية ثم الروحانية السماوية والأجرام السماوية ثم ما بعد ذلك تمثلا لا يمايز الذات.. فهذا هو الكمال الذى يصير به الجوهر العقلى بالفعل وما سلف فهذا الكمال الحيوانى.

النمط الثانى: فى مقامات العارفين:

يحدد ابن سينا مفاهيم ألفاظ ثلاثة هى:

الزاهد هو المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها وهو فى زهده تاجر يشترى بمتاع الدنيا متاع الآخرة..

---

(١) نجد ذلك فى رسالته (حى بن يقظان) ورسائله فى العشق وماهية الصلاة ومعنى الزيارة وغيرها. ومتفرقات فى كل من الشفاء والنجاة.

(٢) الإشارات – تحقيق د. سليمان دنيا، والأنماط الثلاثة ص ٧٤٩ : ٩٠٣.

العابد هو المواظب على فعل العبادات من القيام والصيام ونحوهما وهو فى عبادته أجير يعمل فى الدنيا لأجرة يأخذها فى الآخرة وإنما يعبد الله ويطيعه ليخوله فى الآخرة شبعه من مطعم شهى ومشرب هنى ومنكح بهى.. ولا مطمح لبصره إلا إلى لذة البطن والجنس..

العارف هو المنصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستديما لشروق نور الحق فى سره، وهو يريد الحق الأول لا لشىء غيره ولا يؤثر شيئا على عرفانه، وتعبده له فقط لأنه المستحق للعبادة، وزهده سمو بنفسه عن كل ما يشغل عن الحق..

وقد ذكر ابن سينا مراحل هذا الطريق وهى:

(أ) أول الطريق إرادة وهى رغبة قوية فى الاعتصام بالعروة الوثقى والتحرك بسره إلى جناب القدس لينال من روح الاتصال.

(ب) الخطوة التالية هى الرياضة ولها ثلاثة أغراض هى:

١ — التنزه عما سوى الله بالزهد.

٢ — تطويع النفس الأمارة للنفس المطمئنة لتنجذب قوى التخيل والوهم إلى الاشتغال بالأمور القدسية، وذلك بالعبادة المشفوعة بالفكرة والألحان المهذبة والوعظ الرشيد.

٣ — تلطيف السر وهو محل المشاهدة ويعين على ذلك الفكر اللطيف والعشق العفيف الذى تثيره شمائل المعشوق لا سلطان الشهوة.

(جـ) ونتيجة الطريق (أنه إذا بلغت الإرادة والرياضة حدًا ما، عنت له خلسات من اطلاع نور الحق عليه، لذيذة كأنها بروق تومض إليه ثم تخمد عنه وهو المسمى عندهم أوقاتا، وكل وقت يكتنفه وَجْدان، وَجْد إليه ووجد عليه)[1].

(د) نهاية الطريق هى «إذا عبر الرياضة إلى النَّيْل صار سره مرآة مجلوة محاذيا بها شطر الحق — وردت عليه اللذات العلا وفرح بنفسه لما فيها من أثر الحق، وكان له نظر إلى الحق ونظر إلى نفسه، فكان بعدُ مترددا ثم إنه ليغيب عن نفسه فيلحظ جناب القدس فقط وإن لحظ نفسه فمن حيث هى لاحظة لا من حيث هى بزينتها.. وهناك يحق الوصول».

والعارف — عند ابن سينا — هش بش، بسام، يبجل الصغير من تواضعه كما يبجل الكبير، ولا يعنيه التجسس، ولا يستهويه الغضب عند مشاهدة المنكر لأنه مستبصر بسر الله فى القدر، وإذا أمر بالمعروف أمر برفق ناصح لا بعنف معير.

---

(١) الوَجْد: الشوق والحزن.

وهو شجاع وكيف لا وهو بمعزل عن تقية الموت؟!.

وهو جواد وكيف لا وهو بمعزل عن محبة الباطل؟!.

وهو صفاح وكيف لا ونفسه أكبر من أن تجرحها زلة بشر؟!

وهو نساء للأحقاد وكيف لا وذكره مشغول بالحق؟!.

وقد أحس ابن سينا أن الطريق صعب المرتقى وقد ينال منه بعض المنكرين فقال:

«جل جناب الحق عن أن يكون شريعة لكل وارد، أو أن يطلع عليه إلا واحد بعد واحد، ولذلك فإن ما يشتمل عليه هذا الفن ضحكة للمغفل، وعبرة للمحصل، فمن سمعه فاشمأز عنه فليتهم نفسه لعلها لا تناسبه وكل ميسر لما خلق له ».

النمط الثالث: فى أسرار الآيات:

للعارفين آيات وخوارق تصدر عنهم فقد يتركون الأكل مدة مديدة ويخبرون بالغيب ويتصرفون فى عالم العناصر.. فما سر ذلك؟!.

وقد حاول ابن سينا أن يفسر ذلك كله تفسيرًا طبيعيًا واعتبره من مذاهب الطبيعة المشهورة على حد تعبيره، فالمريض لا يأكل فترات طويلة، وللعارف ما للمريض من اشتغال الطبيعة عن المادة بل يزيد عنه فقدان المرض المضاد للقوة.

والغاضب والمنافس تتضاعف قوته، والعارف أولى بذلك فقد يعتريه من بهاء الحق وجلاله ما يضاعف قوته.

والنفس الإنسانية تنال من الغيب نيلا ما فى حالة المنام فلا مانع من أن يقع مثل ذلك النيل فى حال اليقظة للعارف الذى قلت شواغله الحسية، وانجذب إلى عالم القدس..

ثم أخذ الشيخ الرئيس يفسر المعجزات والكرامات والسحر والحسد بقوة النفوس الخيرة أو الشريرة، وعلاقة النفس بالبدن التى هى علاقة تدبير وتصرف وليست علاقة انطباق وانطباع، والاتصال بالقوى السماوية والعقل الفعال..

وأخيرًا يقدم نصيحته بالاعتصام بحبل التوقف دون الإسراع فى الإنكار.. ويقول «والصواب لك أن تسرح أمثال ذلك إلى بقعة الإمكان ما لم يزدك عنه قائم البرهان، واعلم أن فى الطبيعة عجائب، وللقوى العالية الفعالة والقوى السافلة المنفعلة اجتماعات على غرائب».

رأى ابن طفيل:

فى رسالة «حى بن يقظان» يقدم لنا ابن طفيل فلسفته، ومنها رأيه فى السعادة[1] ووسيلتها وآفاقها..

والسعادة عنده تعنى مشاهدة ذلك الموجود الواجب الوجود على الدوام مشاهدة بالفعل أبدا حتى لا يعرض عنه طرفة عين لكى تواتيه منيته وهو فى حال المشاهدة بالفعل فتتصل لذته دون أن يتخللها ألم..

وكيف يتأتى ذلك؟

يرسم ابن طفيل الطريق فيحدد فى الإنسان اعتبارات ثلاثة:

١ — بدن الإنسان المادى وبه يشبه الحيوان غير الناطق..

٢ — الروح الحيوانى وهو مبدأ سائر القوى البدنية وبه يشبه الأجسام السماوية..

٣ — الروح الربانى الإلهى الذى هو حقيقة الإنسان وبه يشبه واجب الوجود..

وبناء على هذه الاعتبارات يرسم الطريق..

فالبدن عائق عن المشاهدة، ومن الحزم أن يلتزم الإنسان حدودا لأكله لا يتعداها فى كمها وكيفها.. فيأكل من النبات أكثره وجودًا وأقواه توليدًا بشرط ألا يأكل البذر ولا يفسده ولا يلقيه فى موضع لا يصلح للنبات.. فإن عدم هذا فله أن يأخذ من الحيوان أو من بيضه والشرط أن يأخذ من أكثره وجودًا ولا يستأصل نوعا..

والمقدار من كل ذلك هو ما يسد خلة الجوع ولا يزيد عليها فإذا أخذ حاجته من الغذاء فلا يتعرض لسواه حتى يلحقه ضعف يمنعه عن بعض الأعمال التى تجب عليه، ثم يلزم الإنسان نفسه ألا يرى ذا حاجة أو عاهة أو مضرة أو ذا عائق من الحيوان والنبات وهو يقدر على إزالتها عنه إلا ويزيلها.

ويلزم نفسه بدوام الطهارة وإزالة الدنس والرجس عن جسمه، والاغتسال بالماء فى أكثر الأوقات، وتنظيف ما كان من أظفاره وأسنانه، وتطييبها بما أمكنه من طيب النبات وصنوف الدواهن العطرة حتى يتلألأ حسنًا وجمالاً.

ثم يلازم الفكرة فى واجب الوجود ويقطع علائق المحسوسات ويغمض عينيه، ويسد أذنيه، ويروم بمبلغ طاقته ألا يفكر فى شىء سواه، ويجاهد قواه الجسمانية.

---

(١) فلسفة ابن طفيل ورسالة (حى بن يقظان) د. عبد الحليم محمود ص ١١٩ : ١٣٣.

وأخيرًا يطرح صفات الأجسام وأعمالها جميعًا من الاعتناء بأمر الحيوان والنبات ويقتصر على السكون فى مغارته مطرقًا معرضًا عن جميع المحسوسات، مجتمع الهم والفكرة فى واجب الوجود وحده.

ولا يزال يطلب الفناء عن نفسه والإخلاص فى مشاهدة الحق حتى يتلاشى الكل ويضمحل ولا يبقى إلا الواحد الحق فيشاهد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ويؤكد ابن طفيل أن طريق الوصول هو النظر العقلى بمعونة العقل الفعال إلا أن للطريق مراحل تبدأ من الحس إلى العقل، إلى الرياضة الروحية حتى يصل إلى المشاهدة ومقام أولى الصدق.. وهو يمتاز عن مرحلة البحث الفكرى بزيادة الوضوح وإن كان لم ينكشف له فيها أمر على خلاف ما انكشف له فى الحال الأولى.

ويضرب لذلك مثلا فيقول[1]: تخيل حال من خلق مكفوف البصر إلا أنه جيد الفطرة قوى الحدس ثابت الحفظ مسدد الخاطر، فنشأ منذ كان فى بلدة من البلدان وما زال يتعرف أشخاص الناس بها، وكثيرًا من أنواع الحيوان والجمادات وسكك المدينة ومسالكها وديارها وأسواقها، بما له من ضروب الإدراكات الأخر حتى صار بحيث يمشى فى تلك المدينة بغير دليل ويعرف كل من يلقاه ويسلم عليه بأول وهلة، وكان يعرف الألوان وَحَدّها بشروح أسمائها وبعض حدود تدل عليها.

ثم إنه بعد أن حصل فى هذه الرتبة فتح بصره وحدثت له الرؤية البصرية فمشى فى تلك المدينة كلها وطاف بها فلم يجد أمرًا على خلاف ما كان يعتقده ولا أنكر من أمرها شيئًا وصادف الألوان على نحو صدّق المرسوم عنده التى كانت رسمت له بها، غير أنه فى ذلك كله حدث له أمران عظيمان أحدهما تابع للآخر وهما زيادة الوضوح والانبلاج، واللذة العظيمة. فحال الناظرين الذين لم يصلوا إلى طور الولاية هى حالة الأعمى الأولى.

ويحدد ابن طفيل مجال المقارنة فيقصرها على ما يدركه أهل النظر وأهل الولاية مما بعد الطبيعة، وينهى أن نسأل عما يراه أصحاب المشاهدة والأذواق فهو لا يمكن إثباته على الحقيقة (ومن رام التعبير عن تلك الحال فقد رام مستحيلا وهو بمنزلة من يريد أن يذوق الألوان من حيث هى ألوان ويطلب أن يكون السواد مثلا حلوا أو حامضًا).

---

(١) المصدر السابق ص ٦٥.

تعليق وتعقيب:

١ – **ابن سينا والتصوف:** يلتقى ابن طفيل مع الشيخ الرئيس فى القول بـأن النظر العقلى مقدمة لابد منها للوصول إلى الإشراق.

وقد أثارت المعرفة الإشراقية لدى ابن سينا تساؤلا هو: هل كان ابن سينا حقًا متصوفًا؟ أم أنه مجرد باحث فى ظاهرة التصوف؟

يرى الدكتور عبد الحليم محمود[١] أن ابن سينا أقر الطريق ولكنه لم يأخذ فيه وأنه مع طريقته العقلية قد تنسم مقام أولى الصدق وأخذ فى وصفه وإن لم يكن قد تذوقه.

وقد يستشهد على ذلك بحياة اللهو والإقبال على اللذات الحسية التى عاشها ابن سينا.

ويذهب الدكتور محمود قاسم[٢] إلى أن الاتجاه الإشراقى عامة وفى فلسفة ابن سينا خاصة حركة باطنية تستهدف تقويض الإسلام السنى، ومحاولة لبعث فلسفات وثنية قديمة.. وما أسلوب ابن سينا إلا أسلوب الكهان، وما وصاياه بعدم إذاعة أسرار الحكمة المشرقية لغير من يوثق به إلا إرهاب فكرى وإلحاد مستتر مغلف بحجاب رقيق من الآراء الإسلامية كما فى رسائل إخوان الصفا وكتب الإسماعيلية من الشيعة.

ويقول الدكتور محمد على أبو ريان[٣]: والواقع أن الاستشهاد بحياة ابن سينا الظاهرة من حيث إنها كانت حياة لهو وإقبال على اللذات الحسية، والاستدلال بها على أنه لم يكن صاحب تجربة ذوقية – أمر غير مقنع تمامًا لا سيما بعد أن عرفنا أن ابن سينا قد نشأ فى بيئة شيعية إسماعيلية، وأن بعض طوائف الشيعة تقول برفع التكاليف الشرعية عن الإمام وعن الأولياء الواصلين، مما يجعل الحكم متعذرًا على مدى إخلاص ابن سينا فى تجربته الصوفية.

وأقول:

إن التاريخ كما حدثنا عن شهواته فقد أنبأنا أنه فى آخر حياته اغتسل وتاب إلى الله عز وجل وابتهل إلى مبدع الكل وأقبل على قراءة القرآن حتى كان يختم المصحف كل ثلاثة أيام ثم وافته منيته وهو على تلك الحال، فأولى لنا أن ندع سلوكه لن لا تخفى عليه خافية ونقتصر على ما سجله بيده من فكر وفلسفة للحكم عليه فهو وحده الذى بين أيدينا على وجه اليقين.

---

(١) التفكير الفلسفى فى الإسلام ص ٣٠٩ وفلسفة ابن طفيل ص ١٨.

(٢) دراسات فى الفلسفة الإسلامية ص ٢١٧ : ٢٣٥.

(٣) قراءات فى الفلسفة ص ٥٢٣.

وعلى هذا يكون الفخر الرازى قد أصاب الحقيقة حين وصف الأنماط الثلاثة الأخيرة من الإشارات فقال:

«هذا الباب أجل ما فى هذا الكتاب فإنه رتب علوم الصوفية ترتيبًا ما سبقه من قبله ولا لحقه من بعده».

٢ — **تفسيرات باطلة**: نظرية المعرفة الإشراقية لدى الفلاسفة ترتبط بفكرتهم عن الكون القائلة بالفيض والعقول العشرة فالنفس الإنسانية تنسكب فيها المعرفة من العقل الفعال (عقل فلك القمر)، وقد سبق أن رفضنا هذه النظرية بمنطق العقل والعلم والدين.

كذلك فإن تفسير ابن سينا للمعجزات والكرامات يتنافى ومنطق الوحى الإلهى لأنه يعدها من مذاهب الطبيعة المشهورة ويعزوها جميعًا لتأثير الطاقة النفسية للعارفين.. فآية النبوة وبرهانها خارجة عن نطاق الإنس والجن ولا تنال بالاكتساب ﴿ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ (١).

ومن جهة أخرى فإن ما أثبته ابن طفيل من الإشارات لمشاهداته العجيبة فى مقام أولى الصدق لا يعدو أن يكون خليطًا من أوهام وأساطير وإسرائيليات.. استمع إليه وهو يصف ما شاهده.

«.. إلى أن انتهى إلى عالم الكون والفساد وهو جميعه حشو فلك القمر فرأى له ذاتًا بريئة عن المادة ليست شيئًا من الذوات التى شاهدها قبلها ولا هى سواها، ولهذه الذات سبعون ألف وجه، فى كل وجه سبعون ألف فم، فى كل فم سبعون ألف لسان، يسبح بها ذات الواحد الحق ويقدسها ويمجدها لا يفتر».

٣ — **حال الفناء**: نهاية الطريق تتحقق بأن يغيب العارف عن نفسه فيلحظ جناب القدس فقط — على حد تعبير ابن سينا — أو يطلب الفناء عن نفسه والإخلاص فى مشاهدة الحق — كتعبير ابن طفيل.

والعارف فى هذه الحال قد ينطق بعبارات للتعبير عنها لفرط اللذة والحبور فلا تسعفه اللغة، ومن هنا اختلفت العبارات اختلافًا كثيرًا، وزلت به — كما يقول ابن طفيل(٢) — أقدام قوم عن الصراط المستقيم وظُن بآخرين أن أقدامهم زلت وهى لم تزل، وإنما كان ذلك لأنه أمر لا نهاية له فى حضرة متسعة الأكناف محيطة غير محاط بها.

---

(١) سورة البقرة آية: ١٠٥.

(٢) فلسفة ابن طفيل ص ٦٧.

والقول بالفناء أو الغيبة من جنس الطامات — كما يصفه ابن تيمية[1] فإن حال البقاء أكمل من حياة الفناء. فهو حال الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين ومعلوم أن الرسل أفضل الخلق.

ويرى الشيخ عبد المتعال الصعيدى[2] «أن التعمق فى المجاهدة إلى الحد الذى يؤدى إلى ذلك الحال (حال الغيبة والفناء) والنطق بمثل تلك الأقوال ليس من الدين فى شىء لأن العقل أفضل نعمة أنعم الله بها على الإنسان فلا يصح أن يقتله بتلك المجاهدة المبتدعة، ولا أن يصير به إلى تلك الحالة التى يفقد فيها فلا يكون هناك تكليف عليه.

ولا يصح أن يعذر أحد فى تلك الأقوال سواء قالها فى حال الصحو أم فى حال الغيبة، وسواء كان قائلها معروفا بالفضل أم كان غير معروف به لأنه يصل إلى حال الغيبة بالأخذ بأسبابها فيصل إليها قاصدًا متعمدا فيجب أن يؤاخذ بما يحصل منه فيها كما يؤاخذ السكران المتعدى بالسكر، ولأن أهل الفضل لا يصح أن ينطقوا بمثل تلك الأقوال ولا يصح أن يأخذوا بالأسباب التى تؤدى بهم إلى النطق بها».

---

(١) دراسات فى الفلسفة الإسلامية د. محمود قاسم ص ٢٢٣.

(٢) الوسيط فى تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٩٢.

رأى المتصوفة

رأى أبى حامد الغزالى:

إذا اتجهنا نحو الصوفية نستطلع رأيهم فى المعرفة الإشراقية واتخذنا الإمام الغزالى وجهة لنا حيث انتهت على يديه الفلسفة فى المشرق وعلا قدم التصوف، فإننا نجده يقسم الإيمان إلى ثلاثة مراتب[1]:

١ — إيمان العوام وهو إيمان التقليد المحض.

٢ — إيمان المتكلمين وهو إيمان ممزوج بنوع استدلال ودرجته قريبة من درجة إيمان العوام.

٣ — إيمان العارفين وهو المشاهد بنور اليقين ويمتاز عن إيمان السابقين بمزية بينة يستحيل معها الخطأ.

وحقيقة هذا الإيمان هو زوال الحجب بين العبد وربه فتتجلى له صورة الملك والملكوت وتنعكس حقائق العلوم المنقوشة فى اللوح المحفوظ من مرآة اللوح إلى مرآة القلب، وتتلألأ فيه حقائق الأمور الإلهية.

وكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق لأنه أمر ربانى شريف يمتاز عن سائر الجواهر بهذه الخاصية، وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾[2] وإليه الإشارة أيضًا بما روى عن ابن عمر قال: قيل يا رسول الله أين الله فى الأرض أم فى السماء؟

قال: فى قلوب عباده المؤمنين.. وفى الخبر «قال الله عزل وجل — فى الحديث القدسى — لم تسعنى أرضى ولا سمائى ووسعنى قلب عبدى المؤمن..» .

والطريق إلى ذلك هو:

١ — قطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن وعن العلم والولاية والجاه حتى يصير قلبه إلى حالة يستوى فيها وجود كل شىء وعدمه.

---

(١) إحياء علوم الدين جـ ٣ مع تصرف فى العرض والأداء.

(٢) سورة الأحزاب آية ٧٢.

٢ — الخلوة فى زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب، ويجلس فارغ القلب مجموع الهم ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ولا بالتأمل فى تفسير ولا بكتب حديث وغيره..

٣ — الترديد باللسان «الله .. الله» على الدوام مع حضور القلب حتى ينتهى إلى حالة يترك تحريك اللسان ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه ثم يستمر إلى أن يمحى أثره عن اللسان ويصادف قلبه مواظبًا على الذكر، ثم يواظب عليه إلى أن يمحى عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ويبقى معناها مجردًا فى قلبه حاضرًا فيه، لا يفارقه..

وهو بفعله هذا صار متعرضًا لنفحات رحمة الله فلا يبقى إلا الانتظار، وعند ذلك إذا صدقت إرادته وصفت همته وحسنت مواظبته فلم تجاذبه شهواته ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا — تلمع لوامع الحق فى قلبه..

فقد رجع هذا الطريق إلى تطهير من جانبك وتصفية وجلاء ثم استعداد وانتظار..

ويستدل الإمام الغزالى على الكشف والإلهام بأمرين:

أحدهما: عجائب الرؤيا الصادقة فإنه ينكشف فيها الغيب، وإذا جاز ذلك فى النوم فلا يستحيل أيضًا فى اليقظة، فلم يفارق النوم اليقظة إلا فى ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسات، فكم من مستيقظ لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه..

الثانى: إخبار رسول الله ﷺ عن الغيب وأمور المستقبل، كما اشتمل عليه القرآن، وإذا جاز ذلك للنبى ﷺ جاز لغيره إذ النبى عبارة عن شخص مكاشف بالحقائق وشغل بإصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون فى الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشتغل بإصلاح الخلق، وهذا لا يسمى نبيا بل يسمى وليا..

فمن آمن بالأنبياء وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه لا محالة أن يقر بأن القلب له بابان باب إلى الخارج وهو الحواس، وباب إلى الملكوت من داخل القلب وهو باب الإلهام والنفث فى الرُوع والوحى.. فإذا أقرّ بهما جميعًا لم يمكنه أن يحصر العلوم فى التعلم ومباشرة الأسباب المألوفة بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيلاً إليه..

رأى الدكتور عبد الحليم محمود:

للدكتور عبد الحليم محمود مدرسة فى التصوف وله رأى بثه فى كثير من كتبه[1] حول قضية التصوف ومسائله وسنحاول أن نلخص اتجاهه فى البحث العقلى فيما وراء الطبيعة معتمدين على تقديمه لكتاب «المنقذ من الضلال» والدراسات الصوفية التى ضمنها فيه..

---

(١) راجع المنقذ من الضلال، والتفكير الفلسفى، والإسلام والعقل..

يذهب الدكتور عبد الحليم محمود إلى أن البحث العقلى فى الإلهيات نشأ مع الإنسان واختلف منذ البداية فى المنهج والنتيجة..

فمن إنكار مطلق للألوهية والروح إلى إيمان مطلق عام يغرق فى الوهم ويبعد فى الضلال حتى يصل إلى التخريف بأوسع معانيه.. وكل مذهب يلتمس دلائله من العقل..

فالحلول عقيدة راسخة استساغتها البيئات المسيحية وتسابقت عقول مفكريها فى البرهنة عليها وأقامتها على دعائم فلسفية خلبت عقول الملايين من البشر..

والتشبيه قد برهن عليه ذووه ببراهين عقلية ونقلية، ووحدة الوجود لها أنصارها المتحمسون لها.

والصراع دائم تتهافت فيه الأدلة مثخنة بالجراح ولكنها تأبى فى غطرسة أن تعترف بالهزيمة..

واستعمال العقل فى عالم الغيب مخاطرة لقطع البحر على لوح من الخشب، وهيهات النجاة، وإذا ساغ البحث العقلى لدى الناشئين فى أقاليم لم يوجد بها نص مقدس فمن غير الطبيعى فى البيئات التى تحظى بالكتاب المقدس الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه – أن ينشأ بجوار النص المعصوم اختراعات ذهنية تتصل بعالم الغيب وذلك للأسباب التالية:

أولاً: إن مقاييس العقل هى القياس والاستقراء.. والاستقراء مبنى كله على الحس لأنه تتبع جزئيات لا تخرج عن المادة أما مساتير عالم الغيب فلا تدخل فى دائرة اختصاصه، ثم إن الاستقراء تام وناقص، والتام – كما يعترف المناطقة – لا ثمرة له، والناقص – وهو المهم عندهم – فإنه ظنى، والعلم لا يعرف الكلمة الأخيرة.

وأما القياس فإن كليته استقرائية ميدانها الحس ونتائجها ظنية، ثم إن المناطقة لا يشترطون فى مقدماته صدقها فى الواقع بل يكتفون بتسليمها من الخصم فما قيمته إذا كان لا يحفل بصدق النتيجة أو كذبها؟!

وأخيرًا فالقياس دورى فاسد، كل من النتيجة والكبرى متوقف على الأخرى فهو أيضًا عقيم لا يأتى بجديد.

ثانيًا: إن التفكير المجرد عن المحسات معدوم، والتصور العقلى لا يقوم إلا على الحس ولا فرق بين ذهن العبقرى الفذ، وذهن الجاهل الغبى فى الاعتماد على الواقع المحس فى التصور إلا فى تنسيق المحس على نمط جديد.. فصورة أبى الهول هى وحدها الجديدة أما عناصرها (جسم الأسد ورأس الإنسان) فليس ذلك بجديد.

وكل ما لم يخضع لحواس الإنسان فإنه لا يمكن أن يتخيله إلا إذا شبهه بما وقع تحت حسه، وحينما تصور المسيحيون جبريل صوروه على صورة رجل له جناحان، ولذا قال جمهور المسلمين «كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك»، كذلك يرتبط التخيل والتصور بالبيئة التى يعيشها الإنسان والنزعة الثقافية التى تسيطر عليه..

والخلاصة:

إقامة ما وراء الطبيعة على العقل شهوة وهوى ذلك أنه منذ العهد اليونانى وهذا البحث فى إخفاق مستمر وتناقض ملازم، وعلى توالى الزمن تنهار آراء وتنشأ آراء لا تلبث أن تنهار.. وهكذا دواليك، وعلم الكلام الإسلامى آراء من صنع البشر ضلالة وعبث وانحراف..

السبيل:

هو معارج القدس أو منازل السالكين أو مدارج السالكين، بتعبير آخر هو الإلهام والبصيرة والمشاهدة وهى ليست معرفة حسية ولا عقلية ولا نصية وإنما تأتى عن تزكية النفس وتطهيرها والالتجاء إلى الله والتقرب إليه والاستشراف إلى الملأ الأعلى فتفيض عليها منه نفحات وإلهامات ومعرفة هى اليقين بعينه.

مناقشة ورأى:

أولاً: انقطاع عن الخير: إن الانقطاع عن الأهل والمال والولد والعلم ليس انقطاعًا عن علائق الدنيا وإنما هو انقطاع عن خير الآخرة..!!

فالزواج سنة المرسلين قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾[1]

وقال الرسول ﷺ «وفى بضع أحدكم صدقة» قالوا يا رسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟! قال: «أرأيتم لو وضعها فى حرام كان عليه وزر، فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر».

والمال أمر هام وحيوى لأنه قوام بعض الفرائض كالحج والجهاد ولأنه يتيح فرصًا أوسع أمام المؤمن كى يتصدق وينفق ويصبح أهلا لثواب الله، والخير المتعدى أفضل من القاصر وقال ﷺ «اليد العليا خير من اليد السفلى».

---

(١) سورة الرعد آية ٣٨.

والولد الصالح نعمة من الله طلبها الأنبياء وشكروا عليها قال تعالى:

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾[1] وقال سبحانه حكاية عن أبى الأنبياء إبراهيم الخليل:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾[2]

والدعاء الضارع لعباد الرحمن هو:

﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[3]

والعلم به ترفع الدرجات وتنال البركات قال تعالى:

﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ ﴾[4] وروى البخارى بسنده عن الرسول ﷺ «من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين».

وكيف لا يفرق الإنسان فكره بقراءة القرآن ولا بالتأمل فى تفسير..؟!

إن هذا لشىء عجاب..! فقراءة القرآن عبادة وعلم وذكر ولا يعدلها شىء من أنواع الذكر على الإطلاق، وحياة المسلم مرتبطة بالقرآن آناء الليل وأطراف النهار قال تعالى:

﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾[5] ثم من يقول إن ترديد لفظ الجلالة فقط على الدوام وارد شرعا. إن الحديث الذى ختم به البخارى صحيحه يقول:

كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان: «سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» والذكر المأثور عقب الصلوات هو: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر ثلاثا وثلاثين..

ثانيًا: تفسير النصوص: إن النصوص التى حاول أصحاب المشاهدة جذبها لرأيهم نستطيع أن نفهمها على نحو مخالف لما فهموه منها بل إنى أكاد أقطع أنه لم يوجد أحد على عهد النبوة والخلفاء الراشدين فهم فهمهم فى النصوص التى ساقوها مثل قوله تعالى:

---

(١) سورة آل عمران آية ٣٨.

(٢) سورة إبراهيم آية ٣٩.

(٣) سورة الفرقان آية ٧٤.

(٤) سورة الزمر آية ٩.

(٥) سورة الإسراء آية ٧٨ ، ٧٩.

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾[1] وقوله سبحانه:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[2] وقوله جل شأنه:

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾[3]

فهذه النصوص أبعد ما تكون عن معانى الخلوة والانقطاع وانتظار المشاهدة.. فالأمانة فى الآية الأولى هى التكاليف وتبعات الخلافة فى الأرض.. والجهاد فى الآية الثانية هو احتمال أذى المعاندين، والثبات على العقيدة مهما تكن العقبات، ويزيد المعنى جلاء إذا عرفنا أن الآية هى آخر سورة العنكبوت وهى مكية وأن فى مفتتح السورة

﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾.

فالابتلاء ناموس الحياة وهو سنة الأنبياء ومن اقتفى أثرهم، فإن حقيقة الإيمان لا تتجلى إلا بممارسة التكاليف وإعلاء كلمة الحق والجهاد فى سبيلها وتحطيم عقبات المعاندين لها وذلك يحتاج إلى صبر ومصابرة وجهد ومجاهدة، فسلعة الله غالية ألا إن سلعة الله هى الجنة..

والنص الثالث ورد فى سورة البقرة واقعًا بين آية المداينة وآية الرهان، والمقصود بالتقوى فيه الحث على امتثال ما شرع الله من كيفية كتابة الدين والإشهاد عليه وعدم الإضرار بكاتب أو شهيد، والمراد بالتعليم هنا هو تلك الكيفية التى بينها المولى سبحانه فى الحفاظ على الأموال.. والتعليم بإطلاقه العام فى القرآن يشمل نعمة الأحكام التفصيلية التى شرعها الله لكفالة نظام الحياة..

والحال هنا يشبه ما قاله تعالى عقب ما بين من الإحسان إلى الوالدين والنهى عن التبذير، والتحذير من قتل الأولاد وارتكاب الفاحشة وقتل النفس بغير حق، والأمر برعاية اليتيم وإيفاء الكيل والإرشاد إلى بعض الآداب الاجتماعية - قال عقب ذلك كله:

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ﴾[4].

---

(١) سورة الأحزاب آية ٧٢.

(٢) سورة العنكبوت آية ٦٩.

(٣) سورة البقرة آية ٢٨٢.

(٤) سورة الإسراء آية ٣٩.

وتعليم الكتاب والحكمة هو دعوة إبراهيم عليه السلام لهذه الأمة، قال تعالى:

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1]

أما الأحاديث التى نسبوها إلى الرسول ﷺ مثل قوله حين سئل: أين الله؟ فقال: فى قلوب عباده المؤمنين، والحديث القدسى «لم تسعنى أرضى ولا سمائى ووسعنى قلب عبدى المؤمن» فقد ذكر العراقى فى تعليقه على الإحياء عن الأول أنه لم يجده بهذا اللفظ وعن الثانى أنه لم ير له أصلا.

وعلى فرض صحتهما فغير مراد منهما الخلوة والانتظار.. ونحن لا ننكر أن لله تعالى تأييدا لعبده الصالح وتسديدًا لخاطره، وتوفيقًا لخطاه ورعاية له وكفالة.. فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وإنما ننكر المعنى الذى قصدوه والطريقة التى ابتدعوها..

ثالثًا: العقل مناط التكليف: إن العقل هو خصيصة النوع الإنسانى وهو الذى يصحبه أيا كان موقعه، وهو حلقة الاتصال بين البشر جميعًا، ومناط التكليف الإلهى، وأى محاولة لإقصائه عن مجال قبول العقائد الدينية هى محاولة ردة إلى السوفسطائية الأولى، والاعتراف بمذاهب العندية..

وإذا كانت جميع الآراء تحاول الاستناد إلى دلائل، فالعقل الإنسانى العام الراشد يلحظ مداخل الباطل فيها..

وليس كل خلاف جاء معتبرًا إلا خلاف له حظ من النظر

ثم إن كل الفرق الإسلامية على تناقض آرائها تستند إلى نص دينى فهل معنى ذلك إلغاء الاستدلال بالنص الدينى؟ أم أن وجهة الاستدلال به هى الخاطئة؟!

إن أصحاب البصيرة يريدون أن يأتوا من عالم الغيب بتفسيرات للحقائق الإلهية بواسطة الرؤى والإلهام ويستدلون بقصة سيدنا يوسف ورؤياه وقصة موسى والعبد الصالح.. وهذا الاتجاه خطر على الدين وانصراف عن النص الإلهى وإقامة مصدر لمعرفة الغيب غير إخبار المعصوم.

وقد قال صاحب العقائد النسفية «والإلهام ليس من أسباب المعرفة بصحة الشىء عند أهل الحق» وقال أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه كما حكاه الدكتور عبد الحليم محمود نفسه[2]

---

(١) سورة البقرة آية ١٢٩.

(٢) المنقذ من الضلال ص ٢٢١.

«إن الله تعالى ضمن لنا العصمة فى الكتاب والسنة ولم يضمنها فـى جـانب الكشـف ولا الإلهـام ولا المشاهدة إلا بعد عرضها على الكتاب والسنة».

وعلى من يأتى بتفسيرات من عالم الرؤى أن يثبت أولاً أنه يوسف الصديق أو موسـى الكليم أو العبد الصالح بشهادة الله له حتى نثق فى رؤياه..

وأنى له ذلك؟!

ولا أكون مغاليًا إذا قلت إن الرؤيا الصالحة ليست وقفًـا علـى نبـى أو ولى أو عبـد لله صـالح فهل كان ملك مصر يوم رأى رؤياه نبيا أو وليا أو عبدا صالحا؟!!

وماذا يريد أصحاب البصيرة أن يصلوا إليه؟.

إنه على الإجمال يريدون معرفة الغيب[1].

وعلـى التفصيـل يريـدون المعرفـة الحقيقيـة بـذات الله سـبحانه وبصفاتـه الباقيـات التامـات، وبأفعالـه، وبحكمتـه فـى خلـق الدنيـا والآخـرة؛ والمعرفـة بمعنـى النبـوة، والنبـى ومعنى الوحى، ومعنى الشـيطان، ومعنـى لفـظ الملائكـة، وكيفيـة معـاداة الشـياطين للإنسـان، وكيفيـة ظـهور الملـك للأنبيـاء، وكيفيـة وصـول الوحـى إليـهم، والمعـرفة بملكـوت السـموات والأرض..

وأقول: إن عالم الغيب بهذا المعنى لا يبحث فيه العقل ولا يحاول الوصول إليه ولو حـاول لانقلب إلى جنون، ومحاولة استراق السمع بما يسمى بصـيرة ادعـاء متطـاول ولـزوم لـما لا يلـزم ولا تكليف لنا به.

وإذا كان الدكتور عبد الحليم محمود يقول[2].

«إن الدين لم يتعرض لهذه المشاكل، والحس لا يصل إلى حلها، والعقـل بموازينـه ومقاييسـه وقواعده عاجز كل العجز عن الوصول إلى حلها» فإنى أتساءل:

هل بقى بعد ذلك طريق لحل هذه المشاكل يسمى بصيرة أو إلهامًا؟! اللهم لا..

---

(١) التفكير الفلسفى فى الإسلام د. عبد الحليم محمود ص ٤٧٢.

(٢) المنقذ من الضلال ص ٣٤٣.

المبحث الثانى

الـرؤى والأحـــلام

النفس الإنسانية لها السلطان على القوى البدنية، والإنسان فى حال يقظته يستعمل حواسه الظاهرة والباطنة، ويدرك بقواه العقلية، وينتابه من الحركات البدنية ما يجعله يكل.. فإذا فاجأه النوم استسلم له لعله يحظى بقسط من الراحة يعاود بعده السير الطبيعى فى الحياة..

وفى خلال النوم الذى يستغرق ثلث عمر الإنسان تقريبًا قد يتراءى لنا عالم مجهول فيه الكثير من خفايا النفس وأسرار الآخرين..

فما هذا العالم؟ وما حقيقته؟ وما يرمى إليه؟.

وإذا استعرضنا أقوال الباحثين نجد ما يأتى:

أولاً: ذهب صالح تلميذ النظام - كما قال ابن حزم[1] - إلى أن الذى يراه الشخص فى الرؤيا حق كما هو، وأن من رأى نفسه فى الصين وهو بالأندلس فإن الله عز وجل أوجده فى ذلك الوقت بالصين..

وهذا القول فى غاية الفساد لأن العقل والمشاهدة يكذبه ولأن معرفتنا تؤكد أن الحالم قد يرى أخلاطا لا حقيقة معها، وقد صح أن أعرابيًا قص على رسول الله ﷺ أنه حَلَم أن رأسه قطع فهو يجرى وراءه فقال عليه الصلاة والسلام «لا تخبر بتلعب الشيطان بك» رواه مسلم.

ثانيًا: يرى الباحثون المحدثون أن الأحلام علامة نوم غير طبيعى وأن كل ما يراه الإنسان تابع لنوعين من الأسباب:

(أ) الإرهاق البدنى.

(ب) الإجهاد الفكرى.

---

(١) الفصل جـ ٥ ص ١٤ ط صبيح.

ويعتمد أطباء الهند والصين منذ قرون على الرؤى فى تشخيص الأمراض، وفى رأيهم - كما نقل العلامة محمد فريد وجدى[1] - أن الرؤى تنقسم إلى خمسة أقسام على عدد الأعضاء الرئيسية الخمسة وهى القلب والرئتان والكليتان والطحال والكبد، ويعتقدون أن هذه الأعضاء متى كانت سليمة من الأمراض فلا يرى الإنسان رؤيا من أى نوع كانت ولكنها إذا مرضت أو أصابها عارض رأى الإنسان ما يناسب إصابتها.. وهاك بعض الأمثلة:

إذا رأى الشخص أشباحًا مخيفة فذلك دليل على اضطراب فى وظائف القلب أو على امتلاء المعدة.

إذا رأى معارك وأسلحة وجيوشًا فذلك دليل على اضطراب الرئتين وعلى امتلاء المعدة.

إذا رأى أنه يسبح بصعوبة وعلى وشك الغرق كان ذلك دليلاً على سوء حال الكليتين.

إذا رأى أفراحًا وأغانى وموسيقى كان دليلاً على سوء حال الطحال.

إذا رأى غابات تضلل المار، وجبالاً صعبة المرتقى فذلك دليل على فساد الكبد..

ثالثًا: فى أوائل القرن العشرين صدر كتاب «تفسير الأحلام»[2] لسيجموند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٦) وهو يدعى أن الأحلام جميعًا لا تعدو أن تكون تحقيق رغبات جنسية فهى لغة اللاشعور الذى يرتبط برغبات جنسية فهى لغة اللاشعور الذى يرتبط برغبات مكبوتة تسعى دائما إلى الانطلاق إلا أنه لكى تنطلق تلك الرغبات المجرمة تلجأ إلى الرمزية لتخفى أغراضها التى يحظرها المجتمع والقانون.. فوظيفة الحلم عند فرويد هى إشباع الرغبة الجنسية وتخفيف التوتر.

وقد تمرد على فرويد فى رأيه هذا - تلميذاه آدلر، ويونج..

أما «أدلر» فترتبط نظريته فى الأحلام بمبدأ الشعور بالنقص والتطلع إلى القوة، وليس مضمون الأحلام إلا رموزًا تشير إلى علامة السيطرة والخضوع بالنسبة لفرد تجاه آخر وقد تكون هذه الرمزية فى صور جنسية.

وينظر «يونج» إلى الأحلام على أنها طريق لتحقيق التوازن بين الشعور واللاشعور، على معنى أن كل ما يحاول الإنسان هجره والبعد عنه نتيجة القيم والعادات والتقاليد ينزوى إلى اللاشعور وينال حقه فى الوجود عن طريق الأحلام.. فليست الأحلام خاصة بالرغبات الجنسية المكبوتة بل هى عامة التعبير عن كل ما تحتاجه الشخصية من رغبات مكبوتة..

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين جـ ٤ ص ١٦٤.

(٢) راجع كتاب «محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى» ترجمة د. أحمد عزت راجح ومجلة «الجديد» عدد أكتوبر سنة ١٩٧٢ (عدد خاص بالأحلام).

رابعًا: ذهب كثير[1] من الفلاسفة إلى أن النوم مرحلة تسكن فيها الحواس عن متابعة صور العالم الخارجي مما يزيد في تفرغ النفس وصفائها واتصالها بعالمها المجرد اتصالاً روحيًا كالمرايا إذا حوذى بعضها ببعض.. فتدرك في حال الرؤيا الصالحة من أحوالها وأحوال ما يقاربها من الأهل والأقارب ما هو مرتسم في العالم العلوى ثم تعمل القوة المتخيلة على أن تصوره بصورة جزئية مناسبة فتحاكى ما هو خير في صورة جميلة وما هو شر في صورة قبيحة..

ويرى الأفلاطونيون والإشراقيون أن الرؤيا الصالحة مشاهدة النفس صورًا حقيقية موجودة في عالم المثل الذى هو الوجود الحق، إذ أن كل نوع في هذا العالم المادى يعتبر ظلا لمثاله في العالم العلوى.

تعقيب:

إن تعليل الأحلام كما يدعيه أنصار المدرسة التحليلية قائم على اتجاه مادى يعمل على إقصاء القيم الروحية من واقع الناس، وليس من قبيل المنهج العلمي في شيء فهو مجرد مجموعة من الافتراضات والتقديرات كانت ثمرة لعدة مصادر هي[2].

١ - تجارب فرويد مع المرضى والمصابين بالاضطراب النفسى وقد قصر أبحاثه عليهم أربعين سنة فلم يلتق في دراسته بأى شخصية سوية.

٢ - اتخذ فرويد من دراسة نفسه وطفولته قاعدة عامة للبحث وعمد من خلالها إلى استخلاص قوانين عامة بينما لم يكن فرويد إلا فردًا يعيش في مجتمع يضطهد اليهود وينتمى إلى أقلية مكروهة، وأقل ما ينسب إليها حب المال والتعصب والطموح الاقتصادى.

٣ - كان فرويد نفسه مريضًا فقد ذكر الدكتور (ارنست جونز) أنه كان خلال طفولته ينسى نفسه في الفراش وكان في شبابه ينسى الأسماء وكان يدخن عشرين سيجارًا في النهار ليهدئ من سوراته العصبية وكان دائم العزلة ولا يسمح لأحد أن يصاحبه طويلاً.

هذا وقد رأينا معارضة أدلر ويونج لهذه النظرية التى ترجع كل نشاط الإنسان وقيمه إلى عقدة الجنس، كما عارضها كثير من الباحثين.

---

(١) راجع مقدمة ابن خلدون تحقيق د. وافي جـ ١ ص ٥٢١، جـ ٣ ص ١٠٨١ وآراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى ص ٦٨.

(٢) قضايا العصر في ضوء الإسلام: الأستاذ أنور الجندى ص ١٣٧.

ويجب أن نتنبه إلى أن الصهيونية العالمية تعمل بجهد وإصرار على تحقيق ما جاء فى بروتوكولات حكماء صهيون من إفساد العالم وتمييع أخلاقه وهدم قيمه، وهى تستغل فى ذلك كافة الطرق والوسائل، وهى وراء كل دعوة ماجنة أو نظرية فاسدة وليس من المصادفة أن يكون اليهودى دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢) وراء دعوى التطور، واليهودى كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) وراء الشيوعية، واليهودى فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٦) وراء غريزة الجنس، واليهودى سارتر (١٩٠٥ - ١٩٨٠) وراء الوجودية.

يقول الدكتور صبرى جرجس[1]:

«فإلى جانب التحالف بين عنصرية الاستعمار الإمبريالى واليهودية الصهيونية يوجد تحالف بين عنصرية التحليل النفسى واليهودية الصهيونية أيضًا تحالف أقل افتضاحًا وإن لم يكن أهون ضررًا لأنه تحت قناع الفكر العلمى الذى يبعد عنه المظان والشبهات يعمل على المشاركة فى المخطط الذى يستهدف القضاء على معنويات الشعوب بهدم المثل والقيم المكونة لتراثها».

---

(١) التراث اليهودى الصهيونى والفكر الفرويدى ص ٣٧٢.

أنواع الرؤيا:

نحن كمسلمين – نرى أن الرؤيا أنواع:

١ – ما يكون من فعل الشيطان وإلقائه فى النفس من الأضغاث والتخليط الذى لا ينضبط ولا يعدو أن يكون لونا من ألوان العداوة التى أخذ بها نفسه ﴿ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[1].

٢ – ما يكون من حديث النفس وأعمال اليقظة مما يتراءى للمرء فى نومه على أشكال مختلفة.

وينطوى تحت هذا كل ما يدعيه أنصار المدرسة التحليلية: فإن إنكارنا لهم من جهتين:

(أ) قصر جميع الرؤى على عقدة الجنس أو غيرها.

(ب) تعميم تلك الحال على كافة البشر دون مراعاة لمستواهم الأخلاقى..

٣ – ما يكون إلهامًا من الله تعالى للعبد إذا صفت نفسه وتخلصت سريرته من أفكار السوء، وتعلق قلبه بذكر الله واشتغلت جوارحه بعبادة الله..

ويجمع ذلك كله قول الرسول الصادق المصدوق: أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءا من النبوة، والرؤيا ثلاثة: رؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان ورؤيا مما يحدث المرء نفسه فإن رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل ولا يحدث بها الناس» رواه مسلم عن أبى هريرة.

وجاء أعرابى يقول للرسول ﷺ إنى حلمت أن رأسى قطع فأنا أتبعه. فزجره النبى ﷺ وقال:

«لا تخبر بتلعب الشيطان بك فى المنام» رواه مسلم عن جابر.

هذا وليس العدد فى التعبير عن الرؤيا بأنها خمس وأربعون جزءًا من النبوة مقصودًا بل المراد الكثرة فى تفاوت المرتبة بين النبوة والرؤيا بدليل تعدد الروايات فبعضها يذكر ثلاثة وأربعين أو ستة وأربعين أو سبعين وغيرها..

---

(١) سورة المجادلة آية ١٠.

وما ذهب إليه البعض فى رواية ستة وأربعين من أن الوحى كان فى مبتدئه بالرؤيا ستة أشهر وهو نصف سنة ومدة النبوة كلها بمكة والمدينة ثلاث وعشرون سنة فنصف السنة منها جزء من ستة وأربعين - كلام بعيد عن التحقيق - كما يقول ابن خلدون[1] - لأنه إنما وقع ذلك للنبى ﷺ ومن أين لنا أن هذه المدة وقعت لغيره من الأنبياء؟! مع أن ذلك إنما يعطى نسبة زمن الرؤيا من زمن النبوة ولا يعطى نسبة حقيقتها من حقيقة النبوة.

نماذج نبوية:

وإذا أردنا أن نعطى نماذج للرؤيا الصالحة فإن أول ما بدئ به الوحى للرسول ﷺ هو الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

كما ورد ذلك فى صحيح البخارى عن السيدة عائشة، ولا نعرف نماذج من الرؤى قبل النبوة، ولكن جاء القرآن وجاءت السنة الصحيحة بنماذج من الرؤى التى وقعت بعد النبوة، منها على سبيل المثال:

١ - قال الله تعالى: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[2].

ففى غزوة بدر الكبرى واجه المسلمون المشركين فى أول واقعة حربية حاسمة، وكان المشركون ضعف عدد المسلمين وقد وقعت رؤيا لرسول الله ﷺ خلال المعركة شاهد فيها المشركين قلة قليلة فأخبر أصحابه يومئذ قائلا: كأنى أنظر إلى مصارع القوم، وتلك بشرى إلهية حتى يشتد العزم وتقوى الإرادة ويزداد الإقدام..

٢ - قال الله سبحانه: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾[3]. فقد أخبر الرسول ﷺ صحابته فى العام السادس للهجرة برؤيا حق شاهد فيها المسلمين داخلين المسجد الحرام فى أمن تام مؤدين المناسك.

ولما سار المسلمون ووصلوا إلى الحديبية لم يشك جماعة منهم أن الرؤيا النبوية تتحقق عامهم هذا، وحين وقع ما وقع من صلح الحديبية تساءل عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال: ألم

---

(١) المقدمة جـ ١ ص ٥٢٢ - تحقيق د. على عبد الواحد وافى.

(٢) سورة الأنفال آية ٤٣.

(٣) سورة الفتح آية ٢٧.

تخبرنا أنّا سنأتى البيت ونطوف به؟! قال عليه الصلاة والسلام: بلى، أفأخبرتك أنك آتيه عامك هذا؟! قال عمر: لا قال عليه الصلاة والسلام: فإنك آتيه ومطوف به..!! وفعلا ففى العام السابع وفى ذى القعدة أدى الرسول والمسلمون عمرة القضاء ودخلوا مكة معتمرين ملبين بعد سبع سنين طوال حرموا خلالها من رؤية الكعبة المشرفة.. وتجمع المشركون رجالا ونساء وصبية، وتزاحموا ليروا هذا النبى القائد يحيط به المهاجرون والأنصار فى ولاء كامل وحب كبير وطاعة مطلقة[1].

٣ – جاء فى صحيح البخارى أن ابن عمر رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: بينما أنا نائم أتيت بقدح لبن فشربت منه حتى إنى لأرى الرى يخرج من أظفارى ثم أعطيت فضلى عمر.

قالوا: فما أولته يا رسول الله؟.

قال: العلم.

فهنا عبّر الرسول ﷺ رؤياه، وفسر اللبن بالعلم فى كثرة الانتفاع بهما، ويظهر من ذلك فضل عمر، فهو الفاروق الذى كان إسلامه فتحا، وهجرته نصرا وخلافته رحمة.

٤ – وفى صحيح البخارى أيضًا عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: بينا أنا نائم رأيت الناس يعرضون علّى، وعليهم قمص، منها ما يبلغ الثدى، ومنها ما يبلغ دون ذلك، ومّر علّى عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره.

قالوا: ما أولته يا رسول الله؟.

قال: الدين.

وتعبير الرؤيا هنا بتفسير القميص بالدين لأن الأول يستر العورة فى الدنيا، والثانى يستر العورة فى الآخرة، والقميص به كمال الإنسان فى مظهره، والدين به كمال الإنسان فى حقيقته وباطنه، وعمر رضى الله عنه له من سابقته فى الإسلام وجهاده مع رسول الله ونصرته للمسلمين وخدمته إياهم ما يجعله من أعلام الصحابة المبشرين بالجنة والفائزين بالرضوان.

٥ – وجاء فى الصحيح أيضًا: «بينما أنا نائم أتيت خزائن الأرض فوضع فى يدى أسوران من ذهب فكبرا على وأهمانى فأوحى إلى أن انفخهما فنفختهما فذهبا.

فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء وصاحب اليمامة» والمعنى أن الرسول ﷺ أول سوارى الذهب اللذين طارا من يديه بالعنسى متنبئ صنعاء ومسيلمة متنبئ اليمامة، وأن

(١) لمزيد من التفاصيل راجع كتابنا «الرسول حول الكعبة» ص ٤٢.

هذين الشخصين الكذابين سيذهب كيدهما وينمحق شأنهما وقد وقع ذلك كما أخبر الصادق المصدوق..

الرؤيا فى تاريخ الأنبياء:

وعلى مدار الرسالات الإلهية نجد للرؤى ملامح بارزة..

فقصة الفداء لإسماعيل عليه السلام قامت على أساس رؤيا لإبراهيم عليه السلام رأى فيها أنه يذبح ولده، فما كان منهما إلا الاستسلام لذلك الاختبار الإلهى إلى أن جاء الفداء من السماء فاستنقذ إسماعيل من الذبح.. قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾[1].

ويوسف الصديق عليه السلام بدأ حياته برؤيا أسرها إلى أبيه

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴾[2].

وتسير أحداث الحياة وتلقى به المقادير فى بيت العزيز وتراوده ﴿ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا ﴾ ولكن الإيمان يتجلى ويثبت فاعليته وحركته الإيجابية وينطق بملء فيه:

﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

ثم تجتمع النسوة ويتآمرن عليه ولكنه يبتهل إلى ربه فى ضراعة ضارعة:

﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ ﴾ فيلقى فى السجن ويلتقى هناك بفتيين ويسلك معهم سبيل الدعوة إلى الله:

﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾.

---

(١) سورة الصافات آية ١٠٢ : ١٠٧.

(٢) سورة يوسف آية ٤.

ويرى الفتيان رؤيا يعبرها يوسف لهما فيقول:

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ﴾.

وتمضى الأحداث فيرى الملك رؤيا يحار فيها الجميع فأرسلوا إلى يوسف الصديق:

﴿ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ﴾

فيعبرها يوسف كما علمه ربه:

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

وحاصل تأويله أنه فسر البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين يكثر خيرها وزرعها، وأرشدهم إلى طريقة للتخزين فريدة وهى أن تترك الغلال فى سنابلها حتى لا ينال منها السوس، وهى نصيحة منه خارجة عن تعبير الرؤيا، ثم فسر البقرات العجاف والسنبلات اليابسات بسنين جدباء يشتد فيها القحط وتأتى على المخزون من الغلال، ثم بشرهم زيادة على تعبير الرؤيا أنه سيأتى من بعد ذلك عام فرج ورجاء فيه يغاث الناس (من الغيث وهو المطر أو الغوث وهو الفرج) وفيه يعصرون أى يتخذون الزيوت والدهون لكثرة الأعناب والزيتون وغيرهما..

وحينئذ استخلصه الملك لنفسه وجعله على خزائن الأرض، ويأتى إخوة يوسف:

﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾

ويعاودون إليه الرجوع طلبا للزاد إلى أن يقفوا مواقف الضراعة قائلين:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾

وهنا يفصح يوسف عن نفسه ويذكرهم بفعلتهم الشنعاء ويتبعها بالصفح الجميل

﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

ثم يستجلب أهله أجمعين إلى مصر:

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾.

واختلف العلماء فيما بين رؤياه وتأويلها فقال أكثر العلماء: أربعون سنة وقال بعضهم ثمانون سنة وقيل غير ذلك.

وعن طول المدة بين الرؤيا وتحقيقها يقول الخطيب الشربينى فى تفسيره[1]: قال الحكماء إن الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها عن قرب والرؤيا الجيدة إنما يظهر تعبيرها بعد حين، قالوا والسبب فيه أن رحمة الله تعالى تقتضى ألا يحصل الإعلام بوصول الشر إلا عند قرب وصوله حتى يكون الحزن والغم أقل، وأما الإعلام بالخير فإنه يحصل متقدما على ظهوره بزمن طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقع حضور ذلك الخير أكثر وأتم، ولهذا لم تظهر رؤيا يوسف عليه السلام إلا بعد أربعين سنة وهو قول أكثر المفسرين.

هذه هى النظرية الإسلامية فى الرؤى والأحلام وهى نظرية شاملة متكاملة، وهذه هى الرؤيا الصالحة كما وردت فى القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، ويشهد بها واقع الناس جميعا فما من إنسان إلا وله حظ منها رغم أنف أدعياء التحليل النفسى..

وما يقوله علماء النفس من أن هذا النوع من الأحلام يسمى بالتوقع اللاشعورى ويفسرونه بأن هناك دلالات مرت بالعقل يمكن أن تؤخذ لما يصح أن يقع فى المستقبل فيرد عليه الدكتور عبد الكريم دهينة[2]: بأن هذا التعليل متعب جدا لا يسلم به الإنسان سريعا فما معنى دلالات مرت بالعقل؟! وما معنى أنه يمكن أن تؤخذ لما يصح أن يقع فى المستقبل؟! لا، لقد رأى يوسف أحد عشر كوكبا والشمس والقمر يسجدون له وقد كان صغير السن فأى تجربة مرت بعقله قبل ذلك.. لقد كان طفلا صغيرًا؟.

لقد رأى فرعون مصر سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر، وأخر يابسات، فما الذى مر به قبل ذلك ليرى هذه الرؤيا العجيبة، لقد كان فى نعيم ورخاء وراحة بال تجرى بين يديه الخيرات؟.

ويذهب الدكتور القوصى فى كتابه الصحة النفسية إلى أن هذا النوع من الأحلام ليس بحثا من مباحث علم النفس».

---

(١) السراج المنير جـ ٢ ص ٨٦.

(٢) شخصيتك فى الميزان ص ٩٨.

الفصل الرابع

الروح عقب الموت

يقضى الإنسان حياته الموهوبة له إلى أن يحين الأجل المسمى فينتقل من هذه الحياة لا تمنعه قوة ولا ترده حيلة ولا يؤجله طب، وتعجز الإنسانية جمعاء وتقف حيرى أمام هذا الابتلاء الإلهى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾[1].

وإذا كان العلم قد وقف على كثير من حياة الإنسان ودخائله فإنه عاجز عن إدراك ما بعد الحياة، وكل ما يقوله فيه حدس وتخمين يستوى فيه من عاش قديما ومن عاش حديثا، وغاية ما يصل إليه العقل والعلم بكل آلاته لن يزيد على ما قاله قُس بن ساعدة فى سوق عكاظ:

أيها الناس اجتمعوا واستمعوا وعوا.. فإن من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت.. ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟ (ثم أنشد):

فى الذاهبين الأولـ ـين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها يمضى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى إلى ولا من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محا لة حيث صار القوم صائر

وإذا لم يعرفوا ما بعد الموت فقد حاولوا أن يفسروا الموت وكان[2] المعتقد أن الموت يقع لأن القلب قد توقف وبذلك وضع تعريف للموت بأنه توقف القلب عن النبض.. ولكن هذا التعريف انهار فى السنوات الأخيرة عندما استطاع العلم زراعة القلب.. فالقلب يموت ويتوقف عن

---

(١) سورة الواقعة الآيات ٨٣ – ٨٧.

(٢) مجلة الفكر الإسلامى العدد ١٠ ص ٦١.

النبض ويخرجه الطبيب ويضع بدلا منه قلبا آخر من إنسان مات بلا سبب من القلب، أو يستبدله بجهاز اصطناعي يشبهه في عمله فتستمر الحياة بقلب غير القلب أو بآلة صماء لا تحس ولا تفهم ولا تشعر ولا تحيا ولا تنبض..

وبذلك لم يعد الموت هو توقف القلب.. وظل العلم بعد ذلك يتمسك بتعريف قديم وهو أن الموت إنما يتم بموت خلايا المخ التي ما أن تفقد الدماء الحارة والهواء النقي لبعض دقائق حتى تجف وتموت وبموتها لابد من موت صاحبها فلا سبيل إلى محاولة أخرى.

ولكن هذا التعريف قد انهار أيضا منذ سنوات حينما أعلن مستشفى جامعة طوكيو نجاحه في إعادة مخ رجل للحياة بعد توقف نشاطه عدة شهور..

وكان لابد من إيجاد تعريف جديد وصحيح للموت بعد أن ثبت أن الموت ليس تعطل وظائف الأعضاء إذ من اليسير أن تعاد للأعضاء وظائفها بإصلاحها أو باستبدالها بأخرى وأصبح وما من تعريف أصدق للموت من أنه مغادرة الروح للجسم، إذ في حالات كثيرة، والجسم في أتم صحة والأعضاء في أكمل حالاتها تغادر الروح الجسم بلا سبب غير ما سبق تقديره من الله سبحانه وتعالى من توقيت قاطع لموت صاحبها فيموت الإنسان بلا سبب معروف ولا علة واضحة أو دقيقة وبما لا علاقة له إطلاقا بالجسم..

وهكذا لا يوجد للموت سوى تعريف علمي واحد هو ما جاءت به آيات القرآن المجيد:

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

وحيث لا مجال للعلم والعقل أن يستقل بمعرفة ما بعد الموت وحقيقة الأمر هناك في عالم الغيب فما علينا إلا أن نلقي السلم إلى كتاب الله وسنة رسوله نستوضح الخبر ونستجلي الحقيقة. وهذا ما يدعونا إلى الحديث عن عالم البرزخ وهي المرحلة التالية مباشرة لمفارقة الحياة.

ولكن البعض حاول أن يسترق السمع بما سماه «تحضير الأرواح» فما مدى الصدق فيه؟.

فإلى تفصيل الحديث.. وبالله التوفيق.

---

(١) سورة الزمر آية ٤٢.

المبحث الأول

عالم البرزخ

إذا أردنا أن نتفهم عالم البرزخ فعلينا أن ندرك أولا أن الإسلام من بين أديان ومذاهب الأرض - هو وحده الذى يقول: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾. ومن هنا فإن عقائد الإسلام كلها لا تناقض أصل الفطرة ولا مسلمات العقول.

غير أن العقل محدود وقواه متناهية، وله مجاله الذى لا يخطئ فيه وهناك وراء ذلك مجالات يقف عندها العقل لا لكونها مصادمة له بل لكونه أقل من أن يدركها — وحده — على حقيقتها.. من ذلك عالم البرزخ وما يجرى فيه من مسألة وجزاء.

فما دمنا قد آمنا بالله وكمالاته الإلهية عن طريق البرهان العقلى القطعى وأنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق مؤيدًا بالمعجزة التى تواترت جيلا بعد جيل شاهدة على صدقه ونبوته وأنه لا ينطق عن الهوى — فعلينا بعد ذلك — متى صح النقل — الإيمان بما ورد من أمور سمعية أخبر الشارع بوقوعها وهى فى نفسها أمور ممكنة عقلا لا تجمع بين متناقضات ولا تصادم أصلا من أصول الاستدلال، والقدرة التى أبدعت الملك والملكوت لا تزال صالحة لكل شىء ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[1].

ما البرزخ؟

البرزخ فى اللغة الحاجز بين الشيئين قال تعالى: ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾[2] أى حاجز يمنع أن يختلط أحدهما بالآخر.. ونعنى به هنا المرحلة التى تعقب هذه الحياة وتفصل بينها وبين الحياة الآخرة حين يخرج الناس من الأجداث مسرعين يلبون النداء الإلهى ليوم ﴿ يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾.

الدلائل:

وردت النصوص بأن هناك سؤالا وجزاء موقوتا نعيما كان أو عذابا عقب الموت مباشرة كمرحلة تمهيدية للحساب الأكبر الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

---

(١) سورة يس آية ٨٢.

(٢) سورة الرحمن الآية ٢٠.

وعلى هذا اتفق سلف الأمة وأهل السنة وجمهور المعتزلة.

واستدلوا بما يأتى:

١ - قال تعالى فى حق آل فرعون: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾[1].

دلت الآية على أن العرض قبل يوم القيامة لأن العطف يقتضى المغايرة وليس ذلك العرض فى الدنيا قطعا فيكون فى البرزخ.

٢ - قال سبحانه وتعالى فى حق قوم نوح ﴿ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾[2] والفاء للتعقيب فدخول النار عقب الغرق مباشرة يكون فى البرزخ وليس فى القيامة.

٣ - قال جل ذكره فى حق الشهداء:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾[3]

فهذا النعيم قبل يوم القيامة قطعًا لأن الآية ترشدنا إلى ألا نعتبرهم أمواتا كما تخبرنا بأنهم يتطلعون إلى إخوانهم الذين مازالوا فى الدنيا ينتظرون الشهادة.

والأحاديث الصحيحة الواردة فيه أكثر من أن تحصى بحيث تواتر القدر المشترك وإن كان كل واحد منها آحادا فهى متواترة المعنى.. ومنها:

١ - روى الشيخان أن الرسول ﷺ مر بقبرين فقال: إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير أما أحدهما فكان لا يستتر من بوله وأما الآخر فكان يمشى بين الناس بالنميمة.

٢ - ومن الدعاء المتفق عليه أن الرسول ﷺ كان يقول: اللهم إنى أعوذ بك من فتنة النار وعذاب النار وفتنة القبر وعذاب القبر ومن شر فتنة الغنى ومن شر فتنة الفقر.

٣ - ومن المشهور المتفق عليه أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثا ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال: يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة

---

(١) سورة غافر آية ٤٦.

(٢) سورة نوح آية ٢٥.

(٣) سورة آل عمران آية ١٦٩ ، ١٧٠.

ابن ربيعة.. أليس قد وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا، فسمع عمر قول النبى فقال: يا رسول الله كيف يسمعون وأنى يجيبون وقد جيفوا؟ قال والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا.

٤ - روى مسلم بسنده عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة.

وقفة مع آية:

قال تعالى: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾[1].

حاول بعض العلماء الاستدلال بهذه الآية على حياة البرزخ ونفاه آخرون ولكل وجهة.

(أ) قال بعض العلماء: إن الإماتتين هما:

١ - عند حلول الأجل فى الدنيا.

٢ - بعد حياة القبر للسؤال.

والإحياءان هما:

١ - فى القبر.

٢ - عند البعث.

وليس المراد بالإحياء الأول حياة الدنيا لأن مقصود الآية الإخبار على لسان الكفار بأنهم أيقنوا بقدرة الله على البعث وذلك لا يكون إلا فى القبر والحشر أما فى الدنيا فلم يكونوا قد اعترفوا بذنوبهم.

(ب) قال آخرون: إن الإماتتين فى الدنيا وفى القبر وكذا الإحياءان وترك ذكر إحياء الآخرة لأنه معاين لهم ومقصودهم ذكر الأمور الماضية.

وعلى هذين الرأيين يمكن الاستدلال بالآية على حياة القبر ومسألته، لكن هذا الاستدلال ليس مسلما عند الجميع فهناك من يفسر الآية على أن الموت الأول مقصود به خلقهم أمواتا فى أطوار الخلقة من النطفة إلى العلقة إلى المضغة، والموت الثانى هو عند انتهاء الأجل، قال فى حاشية الجمل «فإن الإماتة جعل الشىء عادم الحياة ابتداء أو بتصيير، والمعنى خلقتنا أمواتا ثم صيرتنا أمواتا عند انقضاء آجالنا».

---

(١) سورة غافر آية ١١.

والمراد بالإحياء الأول حياة الدنيا، والإحياء الثانى عند الحشر والجزاء، ويروى عن ابن مسعود فى هذه الآية أنه قال.. هى التى فى البقرة:

﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

وعلى كل فإن نعيم القبر وعذابه ليس متوقفًا على هذه الآية فالدلائل كثيرة والشواهد عليه متواترة المعنى كما سبق.

آراء العلماء فى حقيقة البرزخ

١- جمهور المسلمين:

ذهب جمهور المسلمين إلى أن إحياء الموتى فى قبورهم وسؤالهم فيه حق ثابت، وأن القبر هو ما استقر فيه جسد الإنسان ولو كان جوف الوحوش والطيور أو حيتان البحر، ويعيد الله تعالى إليه نوع حياة لا نحسه نحن ولا ندركه، به يسمع السؤال ويجيب عنه.

وقد روى مسلم بسنده عن أنس بن مالك أن الرسول ﷺ قال: إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم قال: يأتيه ملكان يقعدانه فيقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ قال: فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة فيراهما جميعا.

وروى الشيخان عن البراء بن عازب فى قوله تعالى:

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾.

قال الرسول ﷺ نزلت فى عذاب القبر فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربى الله ونبى محمد ﷺ فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾.

وقال الجمهور إن محاولة استبعاد ذلك حيث نرى الشخص يصلب ويذهب أدراج الرياح وكذا الغريق والمحروق وأكيل السبع.. كل هؤلاء لا يشاهد لهم حياة ولا نرى عليهم أثر تعذيب أو تنعيم – هذه المحاولة لا مسوغ لها إذا علمنا أن قدرة الله صالحة وأن عدم المشاهدة ليس دليلا على نفى الحياة والجزاء، وقد كان النبى ﷺ يرى جبريل وهو بين أظهر أصحابه لا يرونه..

وقال بعضهم[1] لا بُعد فى رد الحياة إلى بعض أجزاء البدن فيختص بالإحياء والمسألة وإن لم يكن ذلك مشاهدًا لنا وأما صورة المحروق ومن أكلته السباع فلا بُعد فى أن تعاد الحياة إلى

(١) المواقف جـ ٨ ص ٣١٧.

الأجزاء المتفرقة أو بعضها وإن كان خلاف العادة فإن خوارق العادات غير ممتنعة فى مقدور الله..

وقال إمام الحرمين[1] «إن المرضى عندنا أن السؤال يقع على أجزاء يعلمها الله تعالى من القلب أو غيره فيحييها الرب تعالى فيتوجه السؤال عليها وذلك غير مستحيل عقلاً وقد شهدت قواطع السمع به، وما ذكروه من الإنكار بمثابة إنكار الجاحدين رؤية رسول الله ﷺ الملائكة مع جلوسه بين أظهرهم.

٢ - رأى ابن حزم[2] :

ذهب ابن حزم إلى أن عذاب القبر ومسألته إنما هو للروح فقط بعد فراقه للجسد، قبر أو لم يقبر وإنما قيل «عذاب القبر» فأضيف إلى القبر لأن المعهود فى أكثر الموتى أنهم يقبرون، ومن ظن أن الميت يحيا فى قبره فقد أخطأ.. ويستدل بما يأتى:

١ - قال تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾.

والعرض لا يكون إلا للأرواح.

٢ - قال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾.

فقد نص القرآن على أن روح من مات يمسكها الله ولا ترجع إلى جسده.

٣ - لو كان هناك حياة للبدن فى قبره لكان الله تعالى قد أماتنا ثلاثًا وأحيانا ثلاثًا وهذا باطل وخلاف القرآن فى قوله: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ فليس هناك حياة ثالثة اللهم إلا من أحياهم الله آية لنبى من الأنبياء كما فى قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ﴾[3].

وقوله: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾[4].

---

(١) الإرشاد ص ٣٧٦.

(٢) الفصل جـ ٤ ص ٦٦ بتصرف.

(٣) سورة البقرة آية ٢٤٣.

(٤) سورة البقرة آية ٢٥٩.

٤ - خطاب الرسول ﷺ لقتلى بدر وإخباره أنهم وجدوا ما وعدهم ربهم حقا قبل أن يكون لهم قبور، وأنهم سامعون لندائه وعدم إنكار الرسول على المسلمين فى قولهم إنهم قد جيفوا، كل ذلك يؤكد أن المدار على الأرواح فقط أما الجسد فلا حس له.

٥ — قال ابن حزم بالنص: لم يأت قط عن رسول الله فى خبر صحيح أن أرواح الموتى ترد إلى أجسادهم عند المسألة ولو صح ذلك عنه عليه السلام لقلنا به، وإنما انفرد بهذه الزيادة من رد الأرواح المنهال بن عمرو وحده وليس بالقوى، تركه شعبة وغيره، وسائر الأخبار الثابتة على خلاف ذلك.

٦ — ساق ابن حزم رواية تقول: دخل ابن عمر المسجد فأبصر ابن الزبير مطروحًا قبل أن يصلب فقيل له: هذه أسماء بنت أبى بكر الصديق، فمال إليها فعزاها وقال: إن هذه الجثث ليست بشىء وإن الأرواح عند الله، فقالت أسماء: وما يمنعنى وقد أهدى رأس يحيى بن زكريا إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل.

ثم ساق ابن حزم رواية أخرى عن ابن مسعود فى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ قال ابن مسعود هى التى فى البقرة: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَىٰكُمْ﴾ .. الآية﴾.

ثم علق قائلاً: فهذا ابن مسعود وأسماء بنت أبى بكر وابن عمر ولا مخالف لهم من الصحابة.. تقطع أسماء وابن عمر على أن الأرواح باقية عند الله وأن الجثث ليست بشىء ويقطع ابن مسعود بأن الحياة مرتان والوفاة كذلك.. وهذا قولنا.

وخلاصة رأى ابن حزم أن البرزخ هو عالم الأرواح الذى كانت موجودة فيه قبل أن تحل بالبدن وأن موضع كل روح يسمى قبرًا تعذب فيه الأرواح وتسأل، وقد صح أن النبى ﷺ رأى موسى عليه السلام قائمًا فى قبره يصلى ليلة الإسراء وأخبر أنه رآه فى السماء السادسة أو السابعة وبلا شك إنما رأى روحه أما جسده فمواري فى التراب، وقد أخبر القرآن أن الشهداء يرزقون عند ربهم وهذا الرزق للأرواح بلا ريب.

٣ - آراء باطلة:

هناك آراء شاذة ومنكرة منها - كما حكى صاحب المواقف[1] - ما ذهب إليه الصالحى من المعتزلة وابن جرير الطبرى وطائفة من الكرامية من تجويز التعذيب على الموتى من غير إحياء، فهذا خروج عن المعقول لأن الجماد لا حس له فكيف يتصور فيه تعذيب.

ومنها ما ذهب إليه بعض المتكلمين من أن الآلام تجتمع فى أجساد الموتى وتتضاعف من غير إحساس بها فإذا حشروا أحسوا بها دفعة واحدة، فهذا إنكار للعذاب قبل الحشر ومصادمة للنص..

---

(١) المواقف جـ ٨ ص ٣١٨.

وهذه الآراء لا تبعد عن آراء من أنكره مطلقًا مثل ضرار بن عمرو من شيوخ المعتزلة..

وذهب ابن الراوندى — كما حكى السعد[1] — إلى أن الحياة موجودة فى كل ميت لأن الموت ليس ضد الحياة بل هو آفة كلية معجزة عن الأفعال الاختيارية غير منافية للعلم..

وهذا مناف لأصول أهل الحق..

ترجيح ورأى :

والذى نراه أن مذهب ابن حزم أسلم وأبعد عن مظان الشبهات التى يثيرها الملاحدة ولا يناله نقد من الوجهة العقلية مع ملاحظة الاقتصار منه على أن عالم البرزخ بكل ما فيه من سؤال وجزاء إنما هو واقع على الروح، أما ما يقوله ابن حزم من أن الروح تعود إلى مكانها الذى كانت فيه قبل حلولها البدن فقد وضحنا رأينا فيه خلال الحديث عن نشأة الروح[2].

ومع ذلك فنحن لا نجزم بنفى المعنى المتبادر إلى الذهن كما صوره جمهور المتكلمين، فالكل محصور فى دائرة الجواز العقلى وليست فيه استحالة بينة، والمدار على النص الوارد وفهمه ولكل وجهة..

ومن عجب أن يتساءل بعض العلماء هل السؤال خاص بهذه الأمة أم عام؟ مع أن الأدلة التى أقاموها من القرآن هى فى حق من سبق مثل قوم نوح وآل فرعون..!!

وهناك أمور لا ترقى إلى مستوى الاعتقاد الواجب فمثلاً هل منكر ونكير اسمان لملكين أو وصفان لحالين، فالمنكر هو تلجلج الكافر والنكير هو تقريع الملكين أم هما نوعان من الملائكة؟

وبأى لغة يكون السؤال؟ ومن المسئول هل هو المكلف فقط أم الجميع؟

كل ذلك لا قطع فيه ومحاولة إثبات أحد الطرفين ترجيح بلا مرجح ورجم بالغيب فلم يرد النص القاطع لتحديد هذه الاتجاهات وبيان الواقع منها.. فالتفويض واجب والإيمان بما ورد حتمى..

---

(١) المقاصد تحقيق د. عبد الرحمن عميرة جـ ٥ ص ١١٦.

(٢) راجع ص ٧٢ من الكتاب.

المبحث الثانى

تحضير الأرواح

يدعى أرباب هذه النزعة أن أرواح الموتى تعايشنا فى هذا العالم وتحيط بنا من كل جانب، ويمكن الاستفادة منها فى كشف أسرار العلم ونواميس الطبيعة، والاستعانة بها فى قضاء المصالح وشفاء المرضى..

ويزعمون أن فى تقدم هذه الأبحاث انتصارًا كبيرًا على المذهب المادى السائد فى عالم اليوم، إذ علم الأرواح الحديث — كما يقول أحمد حسين المحامى[1] — محاولة لتحدى العلم المادى فى ميدانه.. ميدان اللمس والحس والتجربة، فإذا كان العلم يقول إنه لا يؤمن بشىء لا يراه أو يسمعه أو يلمسه أو يكون قادرًا على قياسه فلنجعله يسمع الروح إذ تتكلم، ولنجعله يراها إذ تتحرك، ولنجعل الأرواح تحرك الموائد وتدق بها على الأرض، لنجعلها تشع إشعاعًا ولنرسمها بالآلات إذا لزم الأمر..

وقد حاول هؤلاء أن يضفوا على هذه النزعة نوعًا من الشرعية عن طريق كثرة أتباعها أو صفة أشياعها من كونهم أطباء أو مهندسين أو أساتذة جامعيين..

نشأة الفكرة:

وتبدأ قصة نشأة تحضير الأرواح برواية عن حادثة وقعت — كما يزعمون — سنة ١٨٤٦م فى أمريكا وذلك عندما سمع أمريكى يسكن قرية (هيد سفيل) من مقاطعة نيويورك — طرقات ذات ليلة على أرض بيته فذهب ليكتشف الفاعل فأعيته الحيل فصبر على مضض ولكنه ذات ليلة قام مذعورًا من صراخ ابنته الصغيرة فسألها عما أصابها فزعمت أنها أحست بيد تمر على جسدها وهى فى السرير، فلم ير الرجل بدا من ترك المنزل..

وقد خلفه فى سكناه رجل آخر يسمى (جون فوكس) فحصل لأهله ما حصل لسلفه من الأصوات التى لا تجعل للنوم سبيلاً إلى الجفون، فكانت مدام فوكس تنادى جيرانها وتستعين بهم فى البحث عن الفاعل فلم يهتدوا إليه، فتجاسرت المرأة ذات ليلة وقالت لذلك الطارق: أحدث عشر طرقات ففعل، فقالت له: كم عمر ابنتى كاترين؟ فطرق طرقات على عدد سنى

---

(١) الطاقة الإنسانية ص ٣٨٩.

عمرها، قالت له، إن كنت روحا فأحدث طرقتين أيضًا ففعل، قالت: إن كنت أوذيت من شيء فأحدث طرقتين ففعل، ولم تزل هذه المرأة به حتى علمت بواسطة الطرق أنها روح رجل كان ساكنًا في هذا البيت فقتله جاره ليسرق ماله ودفنه فيه.. فلم يسع مدام فوكس إلا أن استحضرت الجيران واستجوبت الروح أمامهم فأجابت بما جعلهم في دهشة واقتناع في آن واحد إذ كان الأمر كما أخبرت الروح، وضبطت الحكومة الواقعة وأجرتها مجراها القانوني..

وقد شاع أمر هذا الحادث في جميع الأصقاع في أمريكا وغيرها وكثر ظهور مثلها لأن أمثالها كان يظهر كل حين فلا يلتفت إليه، واتجه العلماء نحوها بالبحث والدراسة..

هكذا بكل بساطة يروى أحمد حسين المحامى هذه القصة نقلاً عن كتاب (على حافة العالم الأثيرى).

حجرة التحضير:

أما عن حلقة تحضير الأرواح فيضفون عليها كثيرًا من الروحانية ويستعملون كثيرًا من الترانيم الكنسية إن كانوا مسيحيين أو يتمتمون بآى الذكر الحكيم إن كانوا مسلمين، على هيئات خاصة فى الجلوس مع مصاحبة أنوار كهربائية معينة ليشيعوا جوا من الرهبة يتبعها نوع من الاستهواء الأخاذ..

وقد تطورت حجرات تحضير الأرواح فأنشأ المعهد الدولى للأبحاث الروحية فى لندن حجرة خاصة لتحضير الأرواح على آخر طراز علمى.. فالحجرة مربعة الشكل طول ضلعها ٢٤ قدمًا وارتفاعها ١٢ قدمًا وجدرانها مغطاة بطبقة من الجبس الملون بزرقة خفيفة، وبها مجموعة من كراسى الملاهى تحت كل كرسى منها ميزان يسجل تلقائيًا وزن الجالس دقيقة بدقيقة.. وبها جهاز لتسجيل الحرارة، وآخر لتسجيل الأصوات، وآلة للتسجيل الفوتوغرافى والسينمائى مع استخدام الأشعة فوق البنفسجية والضوء تحت الأحمر لتصوير دقائق الأشياء التى لا ترى بالعين المجردة.. هذا إلى عشرات الأجهزة الأخرى..

وكيفية ظهور الروح – كما يروى محمد فريد وجدى[1] – أن يبتدئ أولاً بشكل سحابة منيرة ثم تأخذ فى التشكل شيئًا فشيئًا حتى تصير شكل إنسان منير ثم تتكاثف حتى تصير لحمًا ودمًا وعظمًا أمام أعينهم فتقف أمامهم وتطوف حولهم عالية بقدمها عن الأرض قليلاً، لابسة هيئة عربية بدوية.. لكن شوهد أن جسمها يكون لينا لدرجة أن الإنسان لو ضغط يدها بين أصبعيه تنبعج يدها بينهما حتى يتلاقيا كأنها عجين ذو قوام متماسك، وشوهد أن لها نبضًا

(١) دائرة معارف القرن العشرين جـ ٤ ص ٣٧٥.

وقلبًا وتنفسًا.. ولما تسأل من أين هذا الجسد؟ تقول استعرته من جسم الواسطة، وفى الواقع إذا وزنت الواسطة وجد أن جسمها قد نقص نصف وزنه وقد شوهد أن الجزء الأسفل من الواسطة تلاشى بالمرة وصار لا وجود له وكلما ذهبت الروح عاد إليها.. أ هـ.

خيال جامح:

ومما يؤكد فى زعمهم أن التحضير يكون لأرواح الموتى أن الروح تتجسد بشكل الميت وهيئته وصوته وكيفية حركته ولديها العلم التام بحال أسرته بل تذكر أهله بأشياء كانت غائبة عنهم..

ولمزيد من الخيال الجامح يقص أحدهم[1] أن مأتمًا قد انقلب إلى فرح نتيجة طوفان الروح بجسد الميت بطرقات البلدة وزيارته لبيوت أصدقائه قبل أن يوارى فى التراب مما جعل المشيعين يكبرون والنساء يزغردن.

وأقيم العزاء وجلس هذا القصاص على مقعد أمام قارئ القرآن فإذا به يرى المرحوم — صاحب المأتم — ببدنه ولحمه ولحيته يقول للقارئ: (الله.. أعد يا أستاذ) فأعاد الأستاذ، ثم يتوجه المرحوم إلى هذا القصاص ويقوله له: عيب الناس تقف، مفيش كراسى، قل للسيد (ابنه) يجيبوا أبسطة وحصر علشان الناس تقعد!!

وإذا انسقنا مع أوهامهم نجدهم يعتقدون بتناسخ الأرواح وتنقلها من كوكب لآخر بل إن كثيرًا من أرواح سكان كوكب الزهرة — قد عاد إلى أجساد أرضية للمعاونة فى تحسين مستقبل العالم..؟؟

ويغرقون فى الخيال فيزعمون أن الزهريين (سكان كوكب الزهرة) ذهبيو الخلقة، زرق العيون جميلو الطلعة، لطيفو الشعر، جنس لطيف جميل للغاية وأكثر جمالا من سكان الأرض وأقصر منهم لقلة الجاذبية، وجميعهم ذو خبرة واسعة بالأمور الغيبية والعلوم الغامضة إذ ينشأون على معرفتها فى سن مبكرة..

وللأسف فهذه الأوهام أنقلها عن مجلة شهرية تعبث بعقول الناس تسمى (عالم الروح..)!! وأولى بها أن تسمى عالم الخرافة.

ويقسم أحدهم المعارضين للروحية إلى أقسام:

١ — الماديون والملحدون.

وهم لا يصدقون بما وراء الطبيعة ولا يعيشون إلا ليومهم.

---

(١) مجلة عالم الروح — يناير سنة ١٩٦٠.

٢ – رجال الدين وهم لا يفهمون روح الدين – حسب زعمه –.

٣ – الأطباء لا يسلمون بالروحية لأنها تنافس مشارطهم وتحول بينهم وبين أرزاقهم.

٤ – جهلاء العلماء. وهم قليلو البحث والاستقصاء فيما وراء المادة الجامدة ومحصورون فى دائرة تخصصهم الضيقة.

تعقيب ومناقشة:

أولا: مناقشة هادئة: إن القول بأن أرواح الموتى تسبح حولنا مطلقة السراح ويمكن تحضيرها – قول باطل من أساسه ومرفوض بإجماع أهل الأديان السماوية وقد بينا فى المبحث الأول من هذا الفصل أن النصوص الدينية قد أكدت أن هناك سؤالا وجزاء موقوتا يعقب الموت مباشرة كمرحلة تمهيدية للحساب الأكبر.

وإن محاولة التأثير على الناس بأن القائمين على أمر هذه النزعة من ذوى الهيئات أو المكانة هى محاولة فاشلة فمتى كان الحق يعرف بالرجال؟! لقد علمنا المنهج الإسلامى أن الرجال يعرفون بالحق ويوزنون به، وأن الحق أحق أن يتبع.. وإلا فماذا هم قائلون فى الشيوعية التى يتبعها الآن ملايين من البشر؟! أو الوثنية التى اعتنقها أجيال من بنى الإنسان؟!.

وإن القصة التى أوردوها فى نشأة تحضير الأرواح هى تكرار للرواية الجاهلية التى اعتنقها المجتمع الجاهلى قبل ثلاثة عشر قرنا من حادثة (هيدسفيل).

وكانوا يسمونها (الهامة) ويزعمون أن روح القتيل الذى لم يدرك بثأره تصير هامة وتقول اسقونى.. اسقونى.. وتظل تنتحب هكذا حتى يؤخذ بثأره.

وقد ورد فى الحديث المتفق عليه النهى عن ذلك، قال الرسول ﷺ (لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر) أى لا عدوى مؤثرة بذاتها ولا تشاؤم بالطير إذا اتخذ وجهة معينة ولا روح للقتيل تنادى بثأره ولا نسىء أى تأخير حرمة شهر المحرم إلى صفر إذا هل وهم فى قتال.

يقول عباس العقاد[1]:

هل السيطرة على الأرواح مسألة قدسية إلهية أو هى مسألة آلية صناعية؟ إن كانت قدسية إلهية فما هى هذه الآلات والأشعة والصورات والمحركات؟.

وما هذا الارتباط بين تحضير الأرواح الحديث والمخترعات الحديثة. وما هذه السيطرة على الأرواح بسلطان تلك الآلات والمخترعات فى أيدى قوم لم تعرف عنهم قداسة ضمير أو رياضة نسك وصلاح؟!.

---

(١) الفلسفة القرآنية ص ١٣٠ جـ ١ ط الهلال.

وإن كانت آلية صناعية فأى تغليب للمادة على الروح أقوى من هذا التغليب الذى ينوط كشف الأرواح بتقدم الصناعات والمخترعات.. ويجعل عالم الأرواح كعالم المادة تابعًا لآلة تدار أو مخترع جديد لم يكن معروفا قبل القرن العشرين؟!.

وكيف نفسر أن عالم الروح كله لم يستطع بجهوده وبواعثه أن ينفذ إلى عالم المادة؟! وأن عالم المادة استطاع ببعض الأجهزة أن ينفذ إلى عالم الروح؟!

وهل سعت الأرواح إلينا فعجزت فى مسعاها؟ أو هى لم تسع قط ونحن الذين أرغمناها على الظهور لنا والتحدث إلينا؟!.

وما معنى قدرتنا وعجزها فى هذه الجهود التى لا قوة لنا فيها لغير أدوات التحضير؟!.

ثانيا: عالم الجن: ماذا علينا لو نسبنا هذه الأشياء المزعومة إلى عالم الجن وحده؟ إذ هو الذى يعيش حولنا ومكلف مثلنا ومنه الصالح والفاسد. قال الله تعالى:

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [سورة الجن/٦]

وفى تفسير هذه الآية يقول الخطيب الشربينى[1]:

وذلك أن العرب كانوا إذا نزلوا واديا قفرا تعبث بهم الجن فى بعض الأحيان لأنهم لم يكونوا يتحصنون بذكر الله وليس عندهم دين صحيح ولا كتاب من الله صريح، فحملهم ذلك على أن يستجيروا بعظمائهم فكان الرجل يقول عند نزوله، أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه، فيبيت فى أمن وجوار منهم حتى يصبح.. قال مقاتل كان أول من تعوذ بالجن قوم من أهل اليمن من بنى حنيفة ثم نشأ فى العرب، فلما جاء الإسلام صار التعوذ بالله لا بالجن».

ومعنى قوله تعالى: ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أن ذلك كان فتنة وضلالا للفريقين فالإنس ازدادوا إثما وانحرافا باعتقادهم فى الجن، وازداد الجن طغيانا وظلما باعتزازهم بأنفسهم.

وفى مفتتح سورة الجن يقول الله تعالى:

﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾

قال الإمام الرازى[2]: اعلم أن قوله تعالى: ﴿ قُلْ ﴾ أمر منه تعالى لرسوله أن يظهر لأصحابه ما أوحى الله إليه فى واقعة الجن وفيه فوائد:

---

(١) السراج المنير جـ ٤ ص ٣٢٨.

(٢) مفاتيح الغيب جـ ٣٠ ص ١٥٣.

١ – أن يعرفوا بذلك أنه عليه السلام كما بعث إلى الإنس فقد بعث إلى الجن.

٢ – أن تعلم قريش أن الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه فآمنوا بالرسول ﷺ.

٣ – أن يعلم القوم أن الجن مكلفون كالإنس.

٤ – أن نعلم أن الجن يستمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا.

وأقول:

إن السحر المعروف قديما لا يختلف كثيرا عن جلسات تحضير الأرواح فلعلها تكون إحدى حلقات السحر التطورية.. فما أشبه الليلة بالبارحة! وما يدريك أن الاتصال بطريقة (القرع) «طق، طق.. طق» يدل على أن الطارق هو روح قريبك أو صديقك؟!.

فبوسع أى روح شيطانى أن يحدث هذه القرعات؟!.

ومن يضمن لنا أن المتحدث هو روح الميت فهل لنا سابقة معرفة بالروح حتى نتأكد أنها هى التى كانت موجودة فى الدنيا قبل الموت؟!

إنهم يقولون إنها تقدم عين الخط الذى ألفناه فى كتابة المرحوم.. فهل نسى هؤلاء أن الحياة تعج بمن يتفننون فى تزوير الخط؟ أفتعجز الجن عن مثل تلك المحاولة؟.

إن الروح تخبر عن أشياء مفقودة وتكشف عن أسرار مكتومة وتصرح بتفاصيل قصة حياة المرحوم وترويها بصوته.. نعم يمكن أن نسلم بوقوع كل ذلك ومع هذا لا ينهض دليلا على مناجاة الموتى وتحضير أرواحهم فلعل روحًا خبيثا يعبث بعقول الناس:

﴿ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾[1].

ولنعلم أن هذه الأخبار كلها ليست من الغيب فى شىء فهى إخبار عن واقع محسوس لهم فإنهم يروننا من حيث لا نراهم.

والغيب كله لله ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ والجن لا تعرف الغيب بنص قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾[2].

---

(١) سورة الأنعام آية: ١٣٧.

(٢) سورة سبأ آية: ١٤.

حكم السحر:

وإلى الذين يتساءلون هل للسحر حقيقة أم لا؟ ليتخذوا من فرض حقيقته ذريعة لتبرير ماهم فيه من شر وفساد.. أقول لهم: أولى لكم أن تسألوا: ما حكم الله فيه؟

عن مالك[1]: الساحر كافر يقتل بالسحر ولا يستتاب بل يتحتم قتله كالزنديق، قال عياض وبقول مالك قال أحمد وجماعة من الصحابة والتابعين.

وقد قرنه الرسول ﷺ بالشرك وجعله من الموبقات فقال: اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا يا رسول الله ﷺ وما هن؟.

قال: «الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات» رواه البخارى.

وقد حذرنا الرسول ﷺ من اللجوء إلى هذا الطريق ولو لمجرد السؤال فقال: من أتى عرافا فسأله عن شىء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة. رواه مسلم.

فإن تجاوزنا السؤال إلى الاعتقاد صدق فينا قول الصادق المصدوق ﷺ: من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد برىء مما أنزل على محمد ﷺ) رواه أبو داود.

وإليك هذه القصة الطريفة[2]:

قيل لعلى كرم الله وجهه لما أراد لقاء الخوارج: لا تلقهم والقمر فى العقرب؟! فقال: وأين قمرهم؟!.

وقال لمن نهاه عن السير فى الساعة التى سار فيها:

ما كان لمحمد ﷺ منجم ولا لنا من بعده، فمن صدقك فى هذا القول لم آمن عليه أن يكون اتخذ من دون الله ندا أو ضدا، اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك.. ثم قال: نكذبك ونخالفك ونسير فى الساعة التى تنهانا عنها.

ثم أقبل على الناس وقال: إياكم وتعلم النجوم إلا ما تهتدون به فى ظلمات البر والبحر، وإنما المنجم كالكافر والكافر فى النار، والمنجم كالساحر والساحر فى النار، والله لئن بلغنى أنك تنظر فى النجوم أو تعمل بها لأخلدنك فى الحبس ما بقيت ولأحرمنك الطعام ما كان لى سلطان..

ثم سافر على كرم الله وجهه فى الساعة التى نهاه عنها فقتلهم وانتصر عليهم.

---

(١) فتح البارى لابن حجر العسقلانى جـ ١٢ ص ٣٣٥.

(٢) السراج المنير للخطيب الشربينى جـ ٤ ص ٣٣٠.

ثالثًا: قانون الماسونية: إن القائمين على أمر تحضير الأرواح أصابع لحركة ماسونية تسعى لتدمير الأخلاق، واقتلاع العقيدة ونزع الولاء للدين الحق..

وما الادعاء بأن تحضير الأرواح يقضى على المادية والإلحاد إلا تغرير وخداع، فهى تؤكد الفلسفات المادية بطريقة غير مباشرة حين تقدم هذه الدلائل الساذجة والخرافة الحمقاء..

إن أرباب حلقات تحضير الأرواح من أئمة الكفر، فكثير منهم من الكتاب والصحفيين الذين تستهويهم الخيالات الجامحة والرمزية الأدبية، وأحدهم وهو (هانن سوافن). كان نقيبًا للصحفيين فى بريطانيا، وانضم إلى حلقات تحضير الأرواح عام ١٩٢٤م، وأخذ يعقد جلسات دورية فى منزله، إلى أن قضى نحبه، فزعم له أصحابه أنه ما زال يتحدث من عالم الروح، ومن أهم كتبه كتاب (حكمة سيلفر بيرش) [١]..

وما حكمة (سيلفر بيرش) إلا قانون الماسونية..

فالروحية الحديثة لا تتبع دينا خاصًا:

(فنحن لا نقارن الروحية بأى دين من الأديان، لأنها المصدر الذى يقف من وراء الأديان والفكر جميعًا، لأنها نفس قانون الوجود والحياة..)

(إن إخلاصنا ليس لعقيدة، ليس لكتاب، ليس لمذهب.. ولكن لروح الحياة الأعظم ولقوانينه الطبيعية الخالدة..).

والروحية الحديثة تستخدم أساليب الكهان فيقول (سيلفر بيرش) عن نفسه: (إنى صوت منبعث من السماء، ينادى أهل الأرض، أن آمنوا بالله، ولا يشغلكم البحث عن اسمى الحقيقى، وعن كيف كان حالى عندما كنت بالأرض، بل اهتموا بما أحمله إليكم من تعاليم، تضىء لكم سواء السبيل وتهديكم الصراط المستقيم).

هكذا بكل سذاجة بلهاء يدعونا إلى أن نستسلم للخرافة دون وعى بحقيقته وإدراك لطبيعته..!!.

والروحية الحديثة تزعم لنفسها هيمنة على الملأ الأعلى وسلطانًا فى الأرض فيقول سيلفر بيرش:

(إنى أحمل رسالة هداية من السماء أعد خطواتها بدقة عباد مخلصون لله عز وجل، تجمعوا فى ملكوته الأعلى، متخذين للرسالة الروحية وسيلة لهداية أهل الأرض.

---

(١) الروح والخلود بين العلم والفلسفة – عبد العزيز جادو – اقرأ عدد ٣٢٦ ص ١٥٣: ١٦٠.

إنى أحمل إليكم رسالتهم هذه، مستخدمًا الجسم الأثيرى لذلك الرجل الهندى الأحمر، الذى كثيرًا ما رأيتموه فى جلساتكم، والذى اتخذ لفظ (سيلفر بيرش) اسما رمزيًا له..

وتأتى داهية الدواهى فيزعم هذا الدعى أنه قبس من نور الله فيقول: (كثير من الناس يحب أو يريد أن يعرف من هو سيلفر بيرش؟ قولوا لهم إنى عبد من عباد الله، أى روح من روح أى قبس من نور الله).

(إن دورى هو دور سفير يبلغ الرسالة، ولقد جاهدت لأكون أمينًا فى إيصال ما حملته وما أعطى لى؛ على أساس الجهاز الذى عندى بالقدرة التى اكتسبتها، وإنى لا أريد إلا أن أكون دائمًا فى الخدمة).

هكذا أفصح الكفر عن دخائله..

إن الوحى قد انقطع بعد محمد ﷺ ..

لكن أدعياء الروحية المزعومة يسترقون السمع، ويخدعون البشر، ويهزأون بالعقل الإنسانى..

ونلمح جانبًا آخر يؤكد ماسونية هذا الاتجاه: هو أن أفكار هؤلاء شتات مذاهب وأديان، لا تجمعها وحدة، ولا تلتقى على وضوح عقدى، فالوسيط المختار فى حكمة سيلفر بيرش طالع فى الأديان والفلسفات القديمة والحديثة فلم يجد فيها غناءه وسكينته فطلقها واعتبر نفسه ملحدا لا يدين بفكر ولا يطمئن لدين حتى إذا ما جاءته الحكمة المزعومة فى الروحية الحديثة اقتنع بصدقها..!!

وتتحدث الروحية المزعومة عن عيسى الناصرى بأنه ما زال يعمل وما زال مشغولاً فى تلك الرسالة الإلهية التى جاءت به يومًا إلى الأرض، وتقول هذه الروحية إن كلمات المسيح (ها أنا معكم دائمًا حتى انقضاء الدهر) يكون لها معنى بالنسبة لهم لا يمكن للكنيسة أن تفسره..!!

أى أنهم خلفاء المسيح فى عالم اليوم والغد..!!

ويتحدث (آرثر كونان دويل) البريطانى بعد موته على لسان الوسيطة (جريس كوك) مؤكدًا وحدة الوجود فيقول[1]:

(أنا لا أحب أن أتكلم الآن بلفظ (أنا) لقد أصبحت (نحن) بدلا منها، وهذا هو شعور كل من يدخل إلى مملكة الحياة الروحية، حيث لا انفصال بينه وبين إخوانه، ولا بينه وبين الله..).

ويقول (سيلفر بيرش) الدعى:

---

(١) الروح والخلود ص ٤٨.

(تذكروا دائمًا أنكم فى الله، وأن الله فيكم..).

وتتبنى الروحية الحديثة قاعدة أساسية من فلسفة المذهب المادى، وهى أن المادة لا تفنى ولا تستحدث، وترتب عليها قضية أخرى، هى أن الطاقة والحياة والعقل لا يفنى ولا يستحدث كذلك.. فالحياة من قبل ومن بعد، والوجود سابق ولاحق..

فأى فرق بين الإيمان والكفر إذا التقيا على قدم العالم والحياة والأحياء؟!

وتؤمن الروحية الحديثة بالتناسخ فالروح يستعمل جسمًا حيًا لغرض نوعى خاص هو تنمية نفسها لكى تتطور روحيًا، وذلك عن طريق سلسلة من الوجودات الأرضية.. وتقول هذه الروحية إنه من الخطأ أن نظن أن روحًا جديدة تولد عند كل ولادة فيزيقية جديدة، فالجسم الفيزيقى يتطور بالتغير فى أشكال وأجسام مادية نباتية أو حيوانية، والروح اللافيزيقية تتطور بالعودة للتجسد[1]..

رابعًا: من التضليل الفكرى والخطيئة فى حق التاريخ أن يكتب أحد أنصار تحضير الأرواح عن دور المرأة فى الوساطة الروحية[2]، ويستشهد على زعمه من نساء الجاهلية بفاطمة بنت مر الخثعمية التى أرادت عبد الله بن عبد المطلب لنفسها فقال لها: أما الحرام فالممات دونه..

ومن نساء الإسلام رابعة العدوية وفاطمة النيسابورية أستاذة ذى النون المصرى، وفاطمة بنت المثنى الأشبيلية التى لازم خدمتها محيى الدين بن عربى، ويضع الكاتب هؤلاء فى بوتقة واحدة مع المشتغلات بالروحية فى أسبانيا وإنجلترا وفرنسا وغيرها.

والعجيب حقًا أنه لا رابطة تجمع بين هؤلاء وأولئك إلا وهم الخرافة وخرافة الوهم فى عقلية هذا الكاتب..

وإذا كان هو نفسه قدم تعريفًا للوساطة الروحية فقال:

هى موهبة تسمح لوسيط أن يسمح لكائن من العالم الآخر بأن يحتل جسده ليستعمله فى التحدث والعمل من خلاله، ودور وسيط الأرواح لا يعدو دور وسيط التنويم المغناطيسى، وكل الفارق هو أن الأخير يخضع لإرادة منوم لم يتخل عن جسده المادى بعد، أما الأول فيخضع لإرادة منوم قد تخلى عن جسده المادى بالوفاة![3].

فما علاقة نسوة الجاهلية أو الإسلام بهذا التعريف الوهمى؟!

---

(١) راجع الروح والخلود ص ٩١.

(٢) عبد العزيز جادو فى الروح والخلود ص ١٣٧.

(٣) المرجع السابق ص ١١٦.